تحليل الانتاج الفكري في مجال مناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات

أحمد بدر

أستاذ في علم المكتبات والمعلومات

جامعة الملك عبد العزيز بجدة

تقديـــــم :

قواعد ومناهج البحث العلمي تكاد تكون واحدة في مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية، ولكن الأمر يختلف عند التطبيق، أي عند تطبيق هذه القواعد والمبادىء البحثية على علم الاجتماع أو علم السياسة أو الكيمياء أو غيرها من العلوم، إذ ستظهر الاختلافات في أمور عديدة، أهمها المتغيرات الداخلة في الظاهرة، وفي تصميم البحث وإمكانية القياس والضبط والتنبؤ وفي الأدلة التي يستعين بها الباحث لاختبار الفروض والتساؤلات وفي النتائج والحلول المحددة أو البدائل والأفضليات.

من أجل ذلك تضع العديد من الجامعات الحديثة في أوروبا وأمريكا ـــ وبعض الجامعات العربية كجامعتي الملك عبد العزيز بجدة وجامعة الكويت ـــ تضع مقررات تمهيدية في مناهج البحث، وتقدم هذه المقررات عادة لطلاب المراحل الجامعية الأولى، بالاضافة إلى مقررات مناهج بحث تخصصية في الأقسام العلمية المختلفة وذلك في المراحل الجامعية النهائية عادة أو في الدراسات العليا.

والانتاج الفكري في مجال مناهج البحث بصفة عامة، قليل نسبيا، وهو أقل من القليل في مجال المكتبات والمعلومات، وذلك على الرغم من امكانية إفادة علم المكتبات والمعلومات من القواعد النظرية والتطبيقات العملية في العلوم الأخرى خصوصا الاجتماعية منها.

وسيحاول الكاتب في هذه الدراسة، أن يتناول علاقة علم المكتبات والمعلومات ببعض العلوم الأخرى، وذلك بالنسبة للمناهج والمفاهيم المشتركة، تدعيما لامكانية الافادة من نتائجها وأساليبها ومناهجها.

ثم تتناول الدراسة تحليلا مقارنا لمحتويات الكتب الانجليزية والعربية الاساسية في مناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات، حتى يتبين للقارىء مدى الاختلاف الواضح في تصور الباحثين لنطاق مناهج علم المكتبات والمعلومات باقسامه وفروعه المختلفة.

وأخيرا تتناول الدراسة تحليلا للبحوث المنشورة في الدوريات المحورية لعلم المكتبات والمعلومات، مستخدمة أسلوب القياسات الوراقية في ذلك، للتعرف على التوزيع النسبي للمناهج والأساليب البحثية المطبقة في دراسات المكتبات والمعلومات.

أولا : نطاق علم المكتبات وعلاقته بالعلوم الأخرى:

هل دراسة المكتبات علم أم فن أم الاثنان معا؟ لقد شغل المكتبيون والقائمون بتدريس علوم المكتبات أو

فنونها بهذا السؤال على مدى المائة عام الماضية، دون الوصول إلى اجابة محددة فاصلة. وفي رأيي أن التعريف يتطور مع تطور الوسائل الفنية المستخدمة في المكتبات ومع القواعد والقوانين التي تحكم التفكير والبحث والخدمة في المجال المكتبي، وتتجه هذه القواعد والقوانين إلى الافادة من الأساليب العلمية في الملاحظة والتجريب : Observation and Experimentation مما يقرب المكتبات من أن تكون علما أكثر منها فنا، ويقرب المكتبات بشكلها الديناميكي من أن تندمج مع علم المعلومات وهو الوجه المعاصر لنشاط المهنة.

ولا بد من أن نسجل هنا تحفظا على دراسات المكتبات، وهي أنها ستظل فنا فقط أو نشاطا عمليا فقط، اذا استمر الأمناء في تجميع البيانات الخام عن عملهم، دون أن يكون في ذهنهم «سبب» يجمعون من أجله هذه البيانات ، واذا استمرت نشاطاتهم في عمليات الوصف والسرد التاريخي، أي دون أن تكون لديهم التعميمات والقوانين والنظريات الخاصة بنشاط المكتبات والمعلومات، على أن تكون هذه التعميمات معتمدة على الأدلة السليمة ومدعمة بالملاحظات العلمية المستمرة.

لقد استخدمت المكتبات أو الأمناء بصفتهم الفردية أساليب مختلفة عديدة (لتحسين الفهارس أو لتطوير نظم الاعارة ... الخ ..) وسجلوا ملاحظاتهم الموضوعية على مختلف أنشطة المكتبات بما تتضمنه من مشاكل التشغيل والتكاليف والمميزات والعيوب وغير ذلك من أوجه النشاط العملي.

ولكن الطريق ما زال بعيدا بين تسجيل هذه الملاحظات وبين تطوير ووضع النظريات والتعميمات والقوانين والتي ستحدد علاقة الناس بالكتاب والمعلومات.

والطريقة العلمية وحدها هي التي ستقطع بنا المسافة المطلوبة بسرعة معقولة، من مجرد التجارب الشخصية والوصف والتأمل والتصور إلى القوانين والتعميمات.

هذا ونطاق علم المكتبات والمعلومات ومجاله واسع وعريض فهو العلم الذي تلتقي عند حدوده جميع أنواع المعرفة الانسانية، وهو يشمل أنواعا من المعرفة تتصل بالعلوم الطبيعية والبيولوجية وحتى بالعلوم التي لم يكتشفها الانسان بعد ومن هنا جاء اهتمامنا بدراسات المكتبات بين الثقافتين العلمية والأدبية أو على الأصح دور المكتبة في اقامة جسور الاتصال بين الثقافات والعلوم المختلفة ودور علم المعلومات في ارساء القواعد الفكرية العلمية الصلبة لعلم موحد هو علم المكتبات والمعلومات.

ولقد تطور علم المكتبات والمعلومات واكتشف على مسيرة تطوره، وسائل فنية يقوم بتدعيمها وتحسينها في كل يوم شأنه في ذلك شأن العلوم الأخرى، بل لعل علم المكتبات يفيد من هذه العلوم سواء بالنسبة لطرائق بحثها أو نظرياتها أو نتائجها ومن أهم العلوم الفرعية لعلم المكتبات والمعلومات يمكن أن نذكر:

١ —	التنظيم	Organization
٢ —	الادارة	Adminstration
٣ —	الاختيار والتزويد	Selection and Acquisition
٤ —	الفهرسة والتكشيف	Cataloging and Indexing
٥ —	التصنيف	Classification

٦ ــ خدمات المراجع Reference Services

٧ ــ عمليات الاعارة Circulation Operations

٨ ــ التوثيق والبيليوجرافيا Documentation and Bibliography

٩ ــ خدمات التصوير والطباعة Reprography والوسائل السمعية والبصرية .

١٠ ــ علم المعلومات بما يتضمنه هذا العلم بدوره من فروع تتعلق بدراسة ظاهرة المعلومات والحصول على المعلومات وتجهيزها واستخدامها ونقلها فضلا عن تصميم وتنفيذ نظم وشبكات المعلومات وأخيرا تطبيق الالكترونيات على عمليات تطويع البيانات وبثها .. وقد استعان علم المعلومات بأدوات التحليل (الاحصاء / الرياضيات / الكومبيوتر) وأساليب الاتصال ولغاته ونظرياته (في مجالات علم النفس واللغة ونظرية الاتصال والتربية وبحوث العمليات وغيرها كالادارة والنظم) وذلك لارساء قواعده المنهجية وحدوده العلمية.

ولا نستطيع أن نتعرف على تفاصيل علاقة مناهج البحث في العلوم المختلفة بكل جوانب عمليات المكتبات والمعلومات ولكننا سنشير إلى بعض هذه الجوانب باختصار :

١ ــ علم المكتبات ومناهج البحث في العلوم الاجتماعية والطبيعية :

لقد استخدم الباحثون في دراسات المكتبات والمعلومات مناهج البحث وأدواته المستخدمة في مختلف العلوم الأخرى .. وذلك بغرض رفع مستوى النظرية المكتبية .. ويمكننا أن نؤكد أن الاستخدام الواسع لطرق البحث في العلوم الأخرى، قد ساعد على رفع مستوى بحوث المكتبات والمعلومات وعلى التغلب على الطبيعة التأملية لبعض النتائج والافتراضات المكتبية ونقصد بالمناهج .. المنهج الوثائقي والتجريبي والمسح والمنهج الاحصائي .. أما الأدوات فتشمل المقابلات والاستبيانات والملاحظات والطرق الاسقاطية ... الخ ونحن نذكر هذه المناهج والادوات على سبيل المثال لا الحصر ..

إن تطبيق الأساليب والمناهج البحثية المختلفة التي تأصلت مع نمو العلوم الاجتماعية والطبيعية على علم المكتبات والمعلومات، من شأنه أن يرسي قواعد هذا العلم، ويزيد من أصالته كعلم وكمهنة .. وعلى كل حال فان مناهج البحث في المكتبات والمعلومات تعتمد على مناهج البحث واساليبه المتبعة في العلوم الأخرى بل وتمتزج معها ومن هنا فان التوسع في قراءة مناهج العلوم الأخرى كالتربية وعلم النفس والاجتماع والاحصاء وبحوث العمليات .. الخ. من شأنه أن يثري اساليب البحث في المكتبات والمعلومات.

ومن الملاحظ أن معظم البحوث في مجال المكتبات ترتكز على المشكلات العملية وليس على القضايا النظرية، فالمطبوعات الجارية مثلا في مجال حفظ واسترجاع المعلومات تركز على اختبار نظم المعلومات القائمة أكثر من اهتمامها بالقضايا النظرية أو الفلسفية. ومن المعروف أن العلم يكتسب أصالته عندما يطور نظرياته وبالتالي يقوم بالشرح والتفسير للظواهر المتعلقة بالمكتبات وبمشاكلها الاتصالية والاعلامية. إن استخدام الطريقة العلمية وتطبيقها على علوم المكتبات والمعلومات سيؤدي إلى انتاج معلومات نسقية معتمدة على الملاحظة والتجربة وغيرهما من مناهج البحث الأخرى.

لقد كتب شارلز وليامس عام ١٩٣٠ «ان السبب الحقيقي في ندرة الدراسات العلمية في مجال المكتبات هو عدم تعليم وتدريب الامناء على مناهج البحث العلمي وأساليبه»،[1] كما أنه ينبغي دراسة احتياجات المكتبات على ضوء تعاملها مع العلوم الأخرى كالاجتماع والاقتصاد ــ وغيرهما من فروع الدراسات

الانسانية الأخرى.

وإذا كان علم المكتبات يهتم بدراسة التزويد والفهرسة والحفظ وبث الكتب وغيرها من وسائل الاتصال فان علم المعلومات يهتم بنطاق أوسع إذ هو يركز على دراسة اساليب تخليق المعلومات واستخدامها وتوصيلها بالاضافة إلى اكتشاف طرق أكثر كفاءة وسرعة لتقديم الحقائق المسجلة للأفراد الذين يحتاجون إليها بعد اخذهم هذه المعلومات(٢). فعلم المكتبات والمعلومات يعتمد في نموه اذن على تطبيقه للمناهج البحثية المستخدمة في كل من العلوم الاجتماعية والطبيعية.

٢ ــ بعض علاقات علم المكتبات بالعلوم الاجتماعية والانسانية:

علاقة المكتبات بالعلوم الاجتماعية هي **علاقة عضوية، ذلك لأن** علم المكتبات جزء من هذه العلوم، كما أن الخدمة المكتبية ذاتها هي خدمة اجتماعية ينسحب عليها ما ينسحب على الخدمات الاجتماعية الأخرى من حيث اتصالها بالسلطات العامة والجمهور العام .. وعلى سبيل المثال فالمكتبات والتربية توأمان يكمل الواحد منهما الآخر والرابطة القوية بينهما تظهر بالنسبة لدور المكتبة التعليمي. كما أن المكتبات تفيد من النظريات والنتائج التي تصل إليها الدراسات التربوية.

أما بالنسبة **للمكتبات وعلم النفس** .. فهناك جوانب مشتركة عديدة فيمكن هنا تطبيق اساليب علم النفس بالنسبة لكيفية التعرف على ميول القراء واتجاهاتهم أو بالنسبة لطريقة اختيار موظفي المكتبة الجدد، كما أن الافادة من النتائج التي يتوصل إليها علم النفس (خصوصا علم النفس الاجتماعي) بالنسبة لتحليل القراءة والقراء وتشكيل الوعي الاجتماعي وغير ذلك من العمليات النفسية من شأنه أن يؤدي إلى اثراء دراسات المكتبات.

وهناك علاقة وثيقة بين **المكتبات وعلم الاجتماع** .. وذلك بالنسبة للاسهام الاجتماعي للمكتبة واسهام البحوث الاجتماعية في التخلص من كثير من الأحكام التأملية والاستنتاجات التي كانت تحيط بالمكتبات .. وهناك مجال للدراسة المشتركة الخاصة بدرجة انتشار واستخدام المكتبة وعلاقة القراء بالكتاب وغيره من وسائل الانصال وغير ذلك من العمليات الاجتماعية والتعليمية للأفراد والجماعات، كما تتصل الدراسة المشتركة ايضا بتأثير الثقافات المختلفة على المجتمع واستخدام اوقات الفراغ .. الخ. فضلا عن ارتباط دراسة المكتبة بفرع الاجتماع الجديد الخاص باجتماعيات المعرفة Social Epistomology.

كما أننا نستطيع في عصرنا الحاضر أن نتعرف على علاقة وارتباط الدراسات المكتبية بعلم السيبرناطيقا (علم التحكم في الآلة والانسان) وبعلم الاقتصاد وبالاحصاء الرياضي وبفلسفة العلوم وتاريخها .. وما ينبغي أن نقوم به هو مزيد من التعرف على هذه العلاقات من أجل رفع مستوى الدراسات المكتبية والوصول إلى نظرية أفضل للمكتبات والافادة من نتائج ومناهج البحث في العلوم الأخرى.

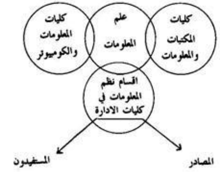
وأخيرا فهناك علاقة وارتباط بين **الانسانيات والمكتبات** فقد يصعب تحديد علاقة الأدب بالمكتبات ومع ذلك فيمكننا أن نقول بأن المكتبات تتحمل مسئولية بالنسبة للأدب، وهذه تتمثل في الحفاظ على مستوى تذوق معين، كما أن المكتبات تعمل ــ ضمن مهامها ــ على تشجيع العمل الخلاق والابداعي، كما أن المكتبي يفيد من النقد الأدبي للكتاب في تقييمه

واختياره وتحديد قارئيه .. كما أن علاقة المكتبات بالاخلاقيات تتمثل في جوانب عديدة منها حل مشاكل اختيار الكتاب المناسب والذي يتفق مع المعاني الأخلاقية التي يرتضيها مجتمع معين.

٣ ــ نظرية الادارة والثورة السلوكية وعلاقتها بعلم المكتبات والمعلومات[٣]

تدعو البحوث السلوكية إلى ترك الطرق التقليدية الفلسفية التأملية الوصفية، واتباع المنهج العلمي في البحث، وذلك لفهم المجتمع وافراده وسلوكهم فهما موضوعيا، والوصول بذلك إلى نظرية تصلح لفهم السلوك الانساني في مختلف الميادين مرتكزة في ذلك على العلم الأمبيريقي. ولعل اتخاذ القرار قد اصبح احدث المفاهيم التي تدور حولها البحوث السياسية والادارية، واتخاذ القرارات واعتمادها على المعلومات قد احتلت مكانا متميزا من بحوث ادارة المكتبات ومراكز المعلومات.

ولعلنا في هذا الصدد أن نشير إلى اتجاهات ثلاثة تجذب علم المعلومات وتظهر في مسميات كليات المكتبات والمعلومات وتبعيتها الاكاديمية في الولايات المتحدة الأمريكية ولعل النموذج التالي أن يشرح لنا هذه الاتجاهات :



فهناك من يرى جذور المعلومات في علم المكتبات أو على الأصح تطور علم المكتبات إلى علم المعلومات في تكامل أو انفصال بينهما (كما هو الحال في تسمية معظم مدارس علوم المكتبات والمعلومات). وهناك من يرى ظهور علم المعلومات مع التطبيقات الالكترونية وبالتالي يربطون بينه وبين علم الكومبيوتر في مدرسة واحدة (كما هو الحال في معهد جورجيا للتكنولوجيا) وأخيراً فهناك من يرى علم المعلومات والكومبيوتر كجزء من دراسات كليات علوم الادارة (كما هو الحال في جامعة اوهايو ستيت) والفكرة وراء هذا الاتجاه الأخير كما هو واضح بالرسم أعلاه، أن أنشطة المكتبات والمعلومات هي أنشطة وسيطة بين المصادر والمستفيدين منها، وهذه الأنشطة هي أنشطة ادارية بالدرجة الأولى، حيث تعين متخذ القرار على اتخاذ قراراته السليمة.

والخلاصة هنا كله أن هناك مجالات عديدة تخدم علم المكتبات والمعلومات في المنهج وفي المفاهيم وبالتالي في ارساء القواعد المنهجية والبحثية في هذا العلم.

هذا ولم يعد من الممكن للأمناء واخصائيي المعلومات أن يطرحوا على انفسهم السؤال التالي:

هل الطريقة العلمية والبحث العلمي يمكن تطبيقهما على دراسات المكتبات والمعلومات لتنتقل من مرحلة الفن والفلسفة والخبرات الذاتية إلى مرحلة العلم؟.

ذلك لأنه من المستبعد ومن غير المقبول أن يتصدى العلماء في التخصصات الأخرى لدراسة وحل مشكلات المكتبات والمعلومات. وأن مستقبل هذا العلم رهن بإرساء القواعد المنهجية والتركيب المعرفي العملي والنظري في هذا المجال، ووضع

النظريات والفروض المتعلقة. واذا كان ما نراه من انشطة اكاديمية بحثية في جامعاتنا يعتبر اضواء على بدايات العمل الجدي، فان المستقبل يحمل في طياته أعمالاً على مستويات رفيعة تعكس هوية هذا العلم القديم الجديد والمتجدد.

ثانيا : التحليل المقارن لمحتويات الكتب الأساسية لمناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات:

الكتاب الأول :

لعل أهم هذه الكتب التي ظهرت في أوائل الثمانينات من هذا القرن هو كتاب شارلز بوشا وزميله ستيفن هارش[٤] ويضم هذا الكتاب خمسة عشر فصلا في أجزاء خمسة. حيث يضم الجزء الأول وهو عن «العلم والمكتبات» فصلا واحدا فقط هو البحث والطريقة العلمية وتحدث فيه عن المفاهيم الأساسية للبحث ومكونات الطريقة العلمية وشرح نموذج عام للبحث العلمي وكيفية العثور على موضوع البحث فضلا عن الاعتبارات الأخلاقية في البحث وتقويم البحوث المكتملة.

أما **الجزء الثاني** والخاص بمناهج البحث فقد ضم خمسة فصول عن البحث التجريبي، ثم البحث المسحي، ثم البحث التاريخي، ثم بحوث العمليات على اعتبار أنها مداخل كمية لتحليل المشكلات الادارية بالمكتبات وذكر ضمن هذا الفصل موضوعات فرعية مثل النماذج وتحليل النظم والمحاكاة ثم يأتي آخر الفصول ليضم مناهج بحث اضافية لم يجد بوشا Busha من المناسب أن يفرد لكل منها فصلا خاصة، ومن هذه المناهج الاضافية ذكر بوشا ما يلي: الملاحظة والوصف ودراسة الحالة ودراسات المستفيدين والمكتبات المقارنة وتحليل المضمون وطريقة دلفي ثم البحث الوثائقي.

أما **الجزء الثالث** والخاص بالاحصاء الوصفي فيضم أربعة فصول عن القياسات والطرق الاحصائية وتطبيقاتها على المكتبات وختم هذا الفصل ببعض المشكلات الاحصائية التي تتطلب حلولا، أما الفصل التالي فيتعلق بالتمثيل الخطي للبيانات أي الرسومات ووسائل التعبير عن البيانات وختم الفصل أيضا ببعض المشكلات التي تحتاج إلى حلول. أما الفصل الثاني فهو عن النزعة المركزية والتباين. Variability وكان الفصل الأخير في هذا الجزء الثالث عن التوزيع العادي Normal Distribution.

أما الجزء **الرابع** وهو عن الاحصاء الاستدلالي Inferential Statistics فيضم فصلين الأول Linear Regression and Correlation أي الانحدار الخطي والارتباط والثاني عن الدلالة الاحصائية واختبار الفرض.

أما **الجزء الخامس** والأخير وهو عن الأدوات المساعدة للبحث فيضم ثلاثة فصول أولها عن الكمبيوتر والآلة الحاسبة Calculator كأدوات مساعدة للبحث ثم كيفية كتابة مخطط البحث أو اقتراح البحث الأولي Research Proposal وأخيرا كيفية كتابة تقرير البحث النهائي Research Report .. وهناك ملاحق للكتاب تضم الأرقام العشوائية والرموز الاحصائية المستخدمة في الكتاب ..

لقد كتب «بوشا» المؤلف الذي نقدم له هنا المقال الخاص «بمناهج البحث في المكتبات» في الموسوعة الدولية لعلم المكتبات والمعلومات[٥]، ولعل ذلك تأييد لما ذهبنا إليه من أن كتابه هو أفضل كتاب عن مناهج البحث في المكتبات والمعلومات.

الكتاب الثاني

أما الكتاب الثاني في الأهمية ــ في رأي الكاتب ــ فهو كتاب هربرت جولدهور[٦] وقد قسم الكاتب دراسته هذه في جزأين **أولهما** عن التصميم المنطقي للبحث العلمي *حيث تناول في هذا الجزء ماهية الطريقة العلمية وتطبيق البحث العلمي على المكتبات ودور النظرية والفرض ثم السببية والبرهان Causation and Proof.

أما **الجزء الثاني** والخاص بتجميع وتحليل البيانات فقد ضم خمسة فصول وهي البحث التاريخي ثم بحوث المسح ثم الطرق الاحصائية ثم البحث التجريبي وأخيرا التحليل والتفسير وتقديم نتائج البحث.

ولعل هذا الكتاب وكتاب بوشا السابق، هما الكتابان المؤلفان في موضوع مناهج البحث تحت أيدينا أما الكتب التالية التي سنقدمها فهي اما كتب قراءات كالكتاب الثالث أو كتب مرشدة لاطار موضوعي في كل منهج من مناهج البحث التي اختارها الباحث مع مصادر مرجعية، والكتاب الأخير قد ركز على الطرق التاريخية والبيلوجرافية في البحث دون سواها من المناهج.

الكتاب الثالث :

أما الكتاب الثالث في الأهمية ــ في رأي الكاتب ــ فهو الكتاب الذي قامت بتحريره كل من باندي واسرمان وراجي[٧] وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه تجميع لمقالات أو دراسات قامت باختيارها المحررة وزميلاها .. وبالتالي فأهميته ترجع إلى التعرف على حدود علم المكتبات والمعلومات ودرجة افادته من مناهج البحث المتبعة في العلوم الأخرى، وقد كتب معظم هذه المقالات المؤلفون المشهورون في مجالات الادارة وعلوم الاتصال والاجتماع والسياسة مثل دافيدايستن D. Easton ودافيدريسمان -Riesman وريتشارد سنايدر Snydar والكتاب يحتوي على ستة أجزاء هي:

١ ــ مقدمة في البحث
٢ ــ تصميم البحث
٣ ــ المفاهيم البحثية
٤ ــ منهجية البحث
٥ ــ بحوث فعلية
٦ ــ وسط البحث وبيئته.

أما بالنسبة **للجزء الأول** عن التقديم للبحث العلمي فقد تضمن مقالات عن «ماهية الطريقة العلمية» و«المعنى المعاصر للسلوكية» و «بعض الملاحظات عن البحوث الخاصة بالعلم الاجتماعي» ثم «التاريخ والدراسات السلوكية وعلم الانسان» Science of Man.

أما **الجزء الثاني** عن تصميم البحث فقد تضمن مقالات عن «النظرية الاجتماعية وأثرها على البحث الامبيريقي» ثم «العناصر الأساسية للطريقة العلمية والفروض».

أما **الجزء الثالث** فهو عن المفاهيم البحثية فقد تضمن مقالات عن «المداخل الحديثة لنظرية الادارة» و «مدخل إتخاذ القرار كمدخل لدراسة الظواهر السياسية» و «التفاوض في الأسئلة وعملية البحث عن المعلومات في المكتبات» ثم «دراسة الاستخدام والمستخدمين للمعرفة المسجلة» وأخيرا «احتياجات واستخدامات المعلومات».

أما الجزء الرابع عن منهجية البحث فقد تضمن مقالات عن «الوثائق الشخصية في علم الاجتماع» و«الأساليب الاحصائية» و «ابعاد المقابلة المعمقة» و«منهجية الملاحظة ذات صفة المشاركة» و«تطوير الأدوات المنهجية في تخطيط وادارة المكتبة».

أما الجزء الخامس : عن البحوث الفعلية فيضم مقالات عن «كتب عظيمة وجماعات صغيرة»، و «التاريخ غير الرسمي لمسح وطني» وكذلك «بحث ميداني عن البيروقراطية وعملية الارتقاء بالمفاهيم والافكار» ثم «النظرية الاجتماعية في البحوث الميدانية».

أما الجزء السادس والأخير : عن الوسط المحيط بالبحث وبيئته فقد تناول مقالات عن «الخصوصية والبحوث السلوكية» وعن «الحرية والمسئولية في البحث» وعن «علاقة المعرفة بالتطبيق العملي» وأخيرا عن «الباحثين والعلماء وصناع السياسة أو دراسة سياسة البحوث على نطاق واسع».

الكتاب الرابع :

أما الكتاب الرابع فهو «طرق البحث في علم المكتبات: مرشد بيليوجرافي مع مخططات للموضوعات المختلفة» تأليف واينر(٨) وقد قسم محتوياته في أربعة فصول أولها عن «**مميزات البحث والطريقة العلمية ثم الدراسات التاريخية ثم الاحصاء ثم الطريقة التجريبية ثم نظرية الادارة وبحوث العمليات ثم دراسات في القراءة واخيرا تحليل المضمون**».

لقد حاول مؤلف الكتاب عن اقتناع وضع اطر الموضوعات والمناهج الاساسية التي يراها صالحة في دراسة المكتبات مع بيليوجرافيات وافية وان كانت قبل عام ١٩٧٠ وقد قدم المؤلف كتابه بهذه الطريقة لقناعته بأن مهنة المكتبات ليست مهنة تهم بالبحث العلمي واورد في مقدمته (تأييدا لرأيه هذا) بما ذهب إليه بتلر Pierce Butler من أن الأمين ــ على خلاف زملائه في مجالات النشاط الاجتماعي غير مهتم بالجوانب النظرية لمهنته ــ وكأن لديه مناعة ذاتية ضد كل محاولة للتساؤل والتبرير العقلاني لممارساته العملية.

وعلى كل حال فقد تغير الحال بشكل ملحوظ في النصف الثاني من القرن العشرين فقد رصدت الميزانيات للبحوث بالجامعات والجمعيات العلمية والمهنية وأخذت **المكتبات دفعة قوية عند التحامها مع علم الكمبيوتر وعلم المعلومات.**

الكتاب الخامس :

أما الكتاب الخامس وهو بعنوان «طرق البحث في المكتبات: الطرق التاريخية والبيليوجرافية في بحوث المكتبات». وقد قام بتحرير المقالات المنشورة فيه رولند ستيفنز(٩) وهذه المقالات هي في الأصل اوراق بحوث مقدمة إلى المؤتمر الذي عقدته مدرسة علم المكتبات العليا بجامعة الينوى في مارس ١٩٧٠.

وإلى جانب المقدمة التي كتبها رولند ستيفنز (المحرر) فقد ذكر البحوث الأحد عشر التالية «أهمية البحوث التاريخية والبيليوجرافية»، «استخدام المصادر الأولية في البحوث التاريخية» ، «استخدام المصادر الأولية في بحوث المكتبات»، «استخدام الارشيفات

في البحوث التاريخية»، «استخدام التاريخ الشفوي في البحث Oral History، «بحوث تاريخ الحياة» Biography، «مهنة التأليف وبعض مشكلات البيليوجرافيا الوصفية» ثم «مشاكل نقد النصوص في بحوث تاريخ المكتبات»، «التاريخ كمعرفة تحتاج إلى التحقيق ومنطق البحث والشرح التاريخي» وأخيرا «الحاجة إلى البحوث في تاريخ المكتبات».

وما يهمنا بالدرجة الأولى في هذا العرض أن هذه البحوث قد قدمت في المؤتمر الثالث الذي عقدته جامعة الينوي (مدرسة علم المكتبات) أما المؤتمر الثاني فقد عقد عام ١٩٦٧ وقد ركز على مشكلات القياس وتقويم البحوث وقد قدم في هذا المؤتمر الثاني احد عشر بحثا، سبعة من هذه البحوث كتبها اختصاصيون في بحوث التعليم وعلم النفس والعلوم السياسية وغيرها من المجالات المتعلقة، أما البحوث الأربعة المتبقية فقد قدمها امناء المكتبات أما المؤتمر الأول والذي تناول مناهج البحث بصفة عامة وكان عام ١٩٦٣ فقد قدم فيه أحد عشر بحثاً أيضا كان اثنان منها فقط اصحابهما من مهنة المكتبات والمعلومات. ولا يفوتنا أن نذكر أن المؤتمر الثالث هذا قد قدم فيه أيضا عدد أحد عشر بحثاً وهي المذكورة اعلاه ثلاثة منها فقط قدمها العاملون في مجال المكتبات والمعلومات أما الثمانية أبحاث الباقية فقد قدمها اختصاصيون من خارج مجال المكتبات [جاء ذلك في مقدمة كتاب ستيفنز المشار إليه].

ونخلص من عرضنا لأهم الكتب الانجليزية التي تناولت موضوع «مناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات» بما يلي :

(١) معظم الانتاج الفكري في مجال بحوث المكتبات والمعلومات يقع في كتب قراءات أي أن يقوم المحرر أو المحررون بتجميع بعض بحوث المؤتمرات أو المقالات الهامة في مجالات علمية قريبة ونشرها في كتاب كما يقع هذا الانتاج الفكري أيضا في مقالات بحثية عديدة ولعل الاهتمام بالبحث العلمي قد أدى إلى ظهور بعض الدوريات التي تهتم بمناهج البحث في المكتبات وتنشر ملخصات للرسائل العلمية كما هو الحال في الدورية العلمية التالية: Library Research: An International Journal, Vol. 1, 1980.

(٢) لاحظنا تزاوجاً أو مصاحبة ببليومترية بين علم المكتبات وعلوم الاتصال والتربية وعلم النفس وعلم السياسة والاجتماع والادارة أكثر من غيرها من العلوم الاجتماعية ولعلنا نلحظ ذلك في المختارات الموجودة بكتاب باندي Bundy السابق الاشارة إليه.

(٣) حدود علم المكتبات تتصل بمختلف انواع المعرفة الانسانية كنشاط اجتماعي ولكن هذا العلم يقع ضمن العلوم الاجتماعية حيث يعتمد عليها في المناهج واساليب البحث حتى الآن ولعل علم المكتبات أن يقوم في المستقبل باثراء العلوم الاجتماعية والطبيعية بنظرياته وتعميماته، بعد أن تنشط داخل المجال حركة البحث والتنظير.

(٤) لقد استخدمت مختلف الاساليب والمناهج البحثية المعروفة في العلوم الاجتماعية، في دراسات علم المكتبات والمعلومات، وإن كنا قد لاحظنا كثرة استخدامات أساليب الوصف ثم التحليل والمنهج التاريخي، ويلاحظ كذلك قلة التطبيقات والاستخدامات للمناهج التجريبية والاحصائية وبحوث العمليات وتحليل النظم.

أما بالنسبة **للكتب العربية** ، فليس هناك كتاب أكاديمي واحد مخصص لمناهج البحث في المكتبات والمعلومات، وإن كانت هناك بعض المقالات المتفرقة القيمة.

وعلى كل حال فقد صدر للمؤلف كتاب «أصول البحث العلمي ومناهجه»[١٠] وهو يقدم أساسيات البحث العلمي ومختلف المناهج التاريخية والتجريبية والمسحية والاحصائية، فضلاً عن مختلف أساليب وأدوات تجميع البيانات كالاستبيان والمقابلة والملاحظة وغيرها، والكتاب على هذه الصورة يخدم الطلاب والباحثين في مختلف التخصصات العلمية بما فيها المكتبات والمعلومات، أما **الكتاب الثاني** للمؤلف أيضا فهو «دراسات في المكتبة والثقافين»[١١]. وقد شمل بابا كاملا عن مناهج البحث في علوم المكتبات والمعلومات، وتضمن هذا الباب سبعة فصول عن البحث التجريبي والمسحي والتاريخي والاحصائي ثم طرق بحوثاً إضافية كبحوث العمليات ودراسة الحالة ودراسات المستفيدين وبحوث التقويم والمكتبات المقارنة وتحليل المضمون وطريقة دلفي والبحوث الوثائقية الكمية، وأخيرا كيفية اعداد مشروع البحث والتعرف على مصادر المعلومات في مجال المكتبات والمعلومات.

أما **الكتاب الثالث** فهو كتاب «دراسات في علم المعلومات»[١٢] الذي جمع فيه الأخ الدكتور حشمت قاسم مجموعة مقالات معظمها يتصل بمنهجية البحث ومن بينها على سبيل المثال «تحليل الاستشهادات المرجعية وتطور القياسات الوراقية» و«دراسات كرانفيلد وتطور مناهج البحث في علم المعلومات».

ولا يفوتني في نهاية عرض الكتب العربية، أن أشير للكتاب الذي يحمل عنوان «مناهج البحث في علوم المكتبات»[١٣]، فهو كتاب لا يحتوي على مناهج بحث، ولكنه يحتوي على بعض المبادىء والقواعد العامة البحثية، وكذلك بعض أدوات تجميع البيانات كالاستبيان والملاحظة وغيرهما..

ثالثا : القياسات الوراقية للبحوث المنشورة في الدوريات المحورية لعلم المكتبات :

قامت الباحثة بلومايبريتز[١٤] بمسح للبحوث المنشورة في الدوريات المحورية للمكتبات واستخدمت طريقة القياسات الوراقية في ذلك المسح، للتعرف على المناهج المستخدمة والموضوعات التي تغطيها بحوث المكتبات في الفترة من عام ١٩٥٠ وحتى عام ١٩٧٥ والمنشورة في امريكا وانجلترا والهيئات الدولية.

وقد قسمت الباحثة لأغراض هذه الدراسة أنواع المناهج كما يلي :—

(١) المناهج النظرية : وهي الدراسات التي تستخدم مناهج رياضية أو لغوية أو منطقية أو غيرها من المناهج الفلسفية.

(٢) المسوحات أو **التجارب** : واستبعدت الباحثة من هذا القطاع الاحصائيات الدورية الروتينية، وفي تحليلها للبيانات قسمت المسوحات والتجارب إلى أربع مجموعات وهي:—

أ — مسوحات الجمهور : وهذه تشمل المسوحات التي تتضمن وحدة البحث فيها عضوا من الجمهور (قارىء أو قارىء محتمل).

ب — مسوحات أو تجارب على المكتبات والخدمات والعمليات أو أشخاص غير أعضاء الجمهور (وقد وضعت الباحثة المسوحات والتجارب في قطاع واحد نظرا لأن العديد من الدراسات تقع بين حدود التجربة والملاحظة).

جـ — الدراسات الوراقية Bibliometric Stndies

د — دراسات تحليل المحتوى Content Analysis

ويلاحظ الكاتب في هذا التقسيم أن الدراسات الوراقية وتحليل المحتوى قد وضعت تحت المسوحات والتجارب، ومن المعروف أن الدراسات الاحصائية للوثائق لها تاريخ مختلط فجزء من التحليل الوثائقي اصبح يسمى الآن القياسات الوراقية Bibliometrics والجزء الثاني يسمى تحليل المضمون Content Analysis ومن هنا فيضعها البعض تحت الدراسات التاريخية والوثائقية الكمية وليس تحت التجارب والمسوحات.

(٣) **التحليل الثانوي** : وتشمل هذه الدراسات بيانات سبق نشرها ولكنها : تعرضت لتحليل جديد والدراسة التي تشمل بيانات منشورة تعتبر بحوثا إذا:

(أ) تم اعادة تحليل البيانات إحصائيا أو منطقيا أو بطريقة أخرى.

(ب) تم تجميع بيانات من مصادر متفرقة ووضعت في اطار منطقي يؤدي إلى نتائج جديدة .

(٤) **البحث التاريخي** : والمعايير التالية قد استخدمت لتحديد البحوث الأصلية في هذا المجال:

(أ) استخدام مصادر وثائقية أولية.

(ب) التحليل والمقارنة النقدية للدليل الوثائقي.

(٥) **تصميم اساليب أو طرق أو اجهزة جديدة**: وهذه التقارير تعتبر جزءا هاما في الانتاج الفكري للمكتبات وهذه تعتبر بحوثا حتى ولو لم يكن هناك دليل على أن هذا التصميم قد تم الوصول إليه باتباع اجراء منهجي معين.

(٦) **البيليوجرافيا الوصفية** : وهذه تشمل البيليوجرافيا النصية ونقد النصوص.

(٧) **المكتبات المقارنة** : وهذه تستخدم عدة مناهج بحثية وتتعلق بالمناطق أو النظم.

وإلى جانب هذه المناهج المحددة فهناك مجموعة أخرى من المناهج البحثية المتعلقة بالمكتبات والتي تدور حول موضوعات متنوعة من التحليل الكيميائي إلى التشريعات والفقه.

ويلاحظ القارىء في عرضنا لهذا التقسيم أنه اجتهادي للباحثة «مناهج البحث لأغراض الدراسة» وقد تقسم المناهج تقسيمات أخرى كما لاحظه القارىء في الكتب السابقة المستعرضة.

نتائج الدراسة : ــ

لقد وضعت الباحثة الجدول التالي الشامل لمختلف المناهج المستخدمة وتوزيعها وذلك من بين ما حصرته من بحوث علمية .. ويلاحظ أن المجموع الكلي يصل إلى أكثر من العدد الفعلي لأوراق البحوث نظرا لأنه في (٩٧) بحثا استُخْدِمَ نوعان من المناهج.

المنهج المستخدم	السنة					المجموع	النسبة المئوية
	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥		
نظري تحليل	١١	١٧	١١	٣٦	٥٢	١٢٧	١٤
ــ تصميم نظم معلومات	٧	١٦	٢١	٥٧	٤٩	١٥٠	١٧
ــ مسوحات او تجارب على المكتبات	٢٢	١٥	٤٥	٨٩	١١٣	٢٨٤	٣٢
ــ مسوحات على: الجمهور	٣	٢	٩	٢٠	١٩	٥٣	٦
ــ القياسات الوراقية والمشابهة	صفر	١	٧	١٤	١٦	٣٨	٤
ــ تحليل المحتوى	صفر	١	٢	١	٣	٧	١
ــ التحليل الثانوي	٦	١٥	١٥	١٣	٢٧	٧٦	٨
ــ المناهج التاريخية	٢١	٢٦	٢٥	٤٩	٤٢	١٦٣	١٨
ــ البيليوجرافيا الوصفية	٧	٤	٦	٤	٩	٣٠	٣
ــ الدراسات المقارنة	صفر	٢	٦	٤	٧	١٩	٢
ــ غير ذلك والدراسات ذات الأكثر من منهج	٣	١	٧	٩	١٠	٣٠	٣
جميع البحوث*	٧٦	٩٦	١٣٩	٢٧٤	٣١٥	٩٠٠	١٠٠٪

* الأرقام تزيد على المجموع الكلي لأوراق البحوث (وكذلك النسبة المئوية تزيد على ١٠٠٪ نظرا لأن البحث الواحد قد يستخدم أكثر من منهج واحد).

ويمكن الاشارة إلى تحليل هذه النتائج كما يلي:

أولا : أكثر أنواع المناهج استخداما هو «المسوحات والتجارب على المكتبات والخدمات والعمليات» .. الخ حيث يشمل هذا القطاع حوالي ثلث جميع الأوراق الخاصة بالبحوث. أما «المسوحات على الجمهور» فتمثل رقما أصغر بكثير فالنوع الأول وصل إلى ٣٢٪ أما مسوحات الجمهور ستة بالمائة فقط. وواضح أن دراسة المكتبات وخدمات المعلومات تأخذ أفضلية على دراسة المستخدمين الفعليين أو المحتملين.

ثانيا : وتأتي المناهج التاريخية في المرتبة الثانية من حيث ضخامتها ولعل ما يوازيها هو تصميم نظم المعلومات ويليها البحوث النظرية التحليلية .. وتحتل بحوث التحليل الثانوي مكانا ذا أهمية أيضا على عكس الوضع في العديد من مجالات العلوم الاجتماعية.

ثالثا : تحتل دراسات القياسات الوراقية أو الدراسات البيليومترية قطاعا صغيرا نسبيا، وقد يبدو ذلك مستغربا نظرا لأن هذا المجال (وعلى الأخص تحليل الاسناد (Citation Analysis) قد أثار اهتماما واضحا في السنوات الأخيرة. ومع ذلك فينبغي أن يكون واضحا في أذهاننا أن دوريات ومجلات المكتبات ليست هي وحدها الدوريات التي تنشر مثل هذه الدراسات.

كما أنه من المستغرب أيضا ألا يلعب منهج تحليل المحتوى أي دور في بحوث علم المكتبات، وهو المنتشر في العلوم الاجتماعية الأخرى.

الهوامش والمراجع :

١ — Charles, Williams, «The Place of Research In Library Science», **Library Quarterly, Jan, 1931, P. 10.**

٢ — Joseph Becher, The First Book of Information Science, Washington, D.C., V.S Atomic Energy Commission, 1973, P. 17.

٣ — عن الثورة السلوكية والثورة ما بعد السلوكية يمكن الرجوع إلى مقالة المؤلف في مجلة العلوم الاجتماعية، الكويت (١٩٧٥) وكذلك كتاب المؤلف بعنوان «الاعلام الدولي» الناشر: وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٣م وعن علاقة المعلومات بالادارة واتخاذ القرار يمكن الرجوع إلى نشرة مركز التنظيم والميكروفيلم، مؤسسة الأهرام، القاهرة، د.ت.

٤ — Busha, Charles and Stephen Harter. **Research Methods in Librarianship: Teacniques and Interpertation** NewYork, Academic Press, 1980.

٥ — Busha, C.H., «Research Methods,» **Encyclopedia of Library and Information Science**, Vol. 25, 1978.

٦ — Goldhor, Herbert. **An Introduction to Scientific Research in Librarianship.** Illinois, University of Illinois, 1972.

٧ — Bundy, Mary Lee and Paul Wasserman with Araghi, G. (eds.) **Reader in Research Methods for Librarianship.** Washington, National Cash Register Company, 1971.

٨ — Wynar, Bohdan S., **Research Methods in Library Science: A Bibliographic Guide with Topical Outlines,** Colo, Libreries Unlimited, 1971.

٩ — Stevens, Rolland E. (ed) **Research Methods in Librarianship:** Historical and Bibligraphical Methods in Library Research . Unbrane, Ill, University, of Illinois, 1971.

١٠ — أحمد بدر. **اصول البحث العلمي ومناهجه**. ط٧. الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٨٤، ٥٥٢ ص.

١١ — احمد بدر. **دراسات في المكتبة والثقافتين**. ط ٣. جدة، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ٢٥٦ ص.

١٢ — حشمت قاسم. **دراسات في علم المعلومات**. القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٨٤، ٢٥٣ ص.

١٣ — ناهد حمدي أحمدي. **مناهج البحث في علوم المكتبات**. الرياض، دار المريخ للنشر، ١٩٧٩، ٢٢٣ ص.

١٤ — Peritz, Bluma C. «The Methods of Library Science Research, Some Results From a Bibliometric Survey». **Library Research An International Journal,** V.Z., No. 3, Fall 1980, 251 - 268.

النمط المركزي للمكتبات الجامعيــــة

تحليل موجز للبعد التاريخي والدراسات المعاصرة

عباس صالح طاشكندي
أستاذ مشارك في قسم المكتبات والمعلومات
وأمين المجلس العلمي بجامعة الملك عبد العزيز – جدة

تهدف هذه الدراسة إلى استعراض بدائل النظام الاداري للمكتبة الجامعية بالتركيز على النمط المركزي وأبعاد نشوئه التاريخي عبر الاشارة إلى بعض النماذج التي ظهرت منذ عصر النهضة حتى الوقت الحاضر، وتحليل أهم الدراسات التي صدرت مؤيدة لاختيار النمط المركزي.

فثمة اختيارات متعددة تتطلب قرارا حاسما عند التخطيط لانشاء الجامعات ومعاهدها المساندة .

أي نمط نسعى لتحقيقه ؟

ما هو الحل الأمثل للتخطيط لبث خدمات المكتبات والمعلومات داخل الشبكة الجامعية المؤلفة من الكليات والمعاهد؟.

هل نخطط لاقامة مكتبة مركزية رئيسية تتولى تغذية الشبكة الجامعية بخدمات المكتبات والمعلومات؟.

أم نخطط لاقامة مكتبات متعددة تتبع نمطا لا مركزيا وتلحق بالكليات والمعاهد لتلبية حاجاتها الخاصة؟.

وهي اختيارات يصعب حسمها بسهولة حيث تتطلب الكثير من التفاصيل والحقائق والبيانات وتخضع للظروف الخاصة بكل جامعة، ويتأثر اتخاذ القرار في شأنها بأمور تتعلق :

١ ـــ بالفلسفة والأهداف التعليمية للمؤسسة.
٢ ـــ بالامكانات المادية وظروف الموقع.
٣ ـــ بالحقائق المالية والانفاق.
٤ ـــ بالكوادر البشرية المتاحة والمتوقعة.
٥ ـــ بالامكانات الفنية المتاحة والمتوقعة.
٦ ـــ بالظروف البيئية المحيطة بالجامعة والمجتمع.

وفضلا عن ذلك كله، فإنها تتطلب من الزاوية المهنية نظرة نقدية فاحصة للبعد التاريخي ومسببات نشوء ظاهرة المكتبات الجامعية وبدائلها الادارية، واستقراء للتجارب التي خاضتها الجامعات الأخرى في نفس المجال، كوسائل متعددة تساعد في اتخاذ قرار حاسم بشأن اختيار النمط المناسب عند التخطيط لخدمات المكتبات والمعلومات في إطار الشبكة الجامعية.

فالبدائل المتاحة لا تخرج عن نمطين قائمين :

الأول : هو النمط اللامركزي : وهو مجموعة من المكتبات تنشأ ملحقة بكليات الجامعة وترتبط إداريا وماليا بها، حيث تعمل على تلبية الحاجات الخاصة بالكلية دون غيرها.

الثاني : هو النمط المركزي : وهو إما على هيئة مكتبة مركزية واحدة تلبي حاجة مختلف كليات الجامعة ومعاهدها، أو على هيئة

مجموعة من المكتبات الفرعية ترتبط إداريا وماليا وفنيا بشكل مباشر بمكتبة مركزية أو بحيث تتكون على هيئة شبكة تغذي الحاجات العامة للجامعة وتبث خدماتها للكليات بشكل خاص.

ويتميز **النمط المركزي** CENTRAL PATTERN عن **اللامركزي** في إمكان :

١ ــ تحقيق السيطرة البيليوجرافية للمجموعات عن طريق الفهارس الرئيسيه والموحدة.

٢ ــ الاستثمار الجيد للمصادر عن طريق الحد من الازدواجية والتكرار.

٣ ــ توسيع نطاق استخدام المصادر عن طريق اتاحتها لقاعدة أكبر من المستفيدين.

٤ ــ تطبيق التقنيات الفنية بشكل محكم.

٥ ــ تخصيص المكتبات الفرعية للعناية بالخدمات المكتبية دون غيرها من الوظائف.

٦ ــ تلبية الحاجات العلمية المتداخلة للمستفيدين وتنويع مصادر دراساتهم.

أما **النمط اللامركزي** DECENTRALIZED PATTERN فتقوم دعوى أنصاره على :

١ ــ خصائصه في تلبية الحاجات المباشرة للمستفيدين.

٢ ــ عدم ارتباطه بالمعوقات التي يمكن أن تحدثها بيروقراطية الشبكة المكتبية.

٣ ــ وفائه للرغبات الادارية والفنية لأعضاء هيئة التدريس بالكلية.

٤ ــ مرونته في تقديم الخدمات المكتبية المباشرة.

٥ ــ تبعيته الادارية والفنية لسلطة الكلية المباشرة.

على أن نشوء كل من هذين النمطين قد ارتبط بأبعاد تاريخية ربما عادت إلى بداية نشوء الجامعات، ذلك أن مفهوم الجامعة UNIVERSITY وبأصله اللاتيني UNIVERSITAS والذي يعني «الهيئة» أو «النقابة» لم يكن إلا وليد القرن الثاني عشر الميلادي في أوربا حين أصدر الامبراطور فريدريك الثاني عام ١١٥٨م البراءة الشهيرة معترفا فيها بمدرسة الطب في بولونيا كأول جامعة أوربية.[(١)]

فالنظم التعليمية التي سادت اوربا في تلك الفترة كانت تعتمد على نظام المدارس والمعاهد والكليات وهي التي أحاطت نفسها بعدد من الأنشطة المساعدة بصورة متواضعة، وأخذت في التوسع تدريجيا مكونة نواة للجامعات الأوربية الشهيرة التي ظهرت فيما بعد في كل من بروسيا وفرنسا وانجلترا وغيرها من الدول الأوربية .

وإذا ما حاولنا أن نحيط بطبيعة المكتبات الاكاديمية التي نشأت في تلك الفترة ملحقة بالمدارس والكليات والمعاهد فسنجدها على هيئة متواضعة سواء في حجم مجموعاتها أو طريقة تنظيمها أو خدماتها، ذلك أنها لم تكن في الأصل إلا مجموعات فردية اهديت للمعاهد أو مجموعة لاهوتية تعود لأصول التعليم الديني الكنسي الذي ساد أوروبا قبل عصر النهضة ثم آلت بالهبة والإهداء مكونة مكتبات تلك المعاهد.

ونستدل من الكتابات التاريخية لألفريد هيسل[(٢)] وجونسون[(٣)] وماهر حمادة[(٤)] وغيرهم بأن أغلب تلك المكتبات كانت صغيرة في الحجم تعود في أصولها إلى هيئات الأفراد من الأساتذة والخريجين، وأن تنظيمها كان تقليديا على نمط المكتبات الكنسية .

«ولم يختلف تنظيم هذه المكتبات أساسا عن تنظيم مكتبات الكنائس والأديرة وحتى قاعات الكلية أنشئت على نمط هذه المكتبات الكنسية. ولكننا بمقارنة هذه المكتبات بمكتبات العصر السابق نجد أنها كانت تتجه أساسا إلى خدمة المعرفة ومعاهد الدراسة بطريقة عملية أكثر من ذي قبل»[(٥)].

ويؤكد هيسل(٦) بأن مهمة تسويق الكتب الجامعية كانت موكولة بالوراقين، وبالتالي فإن السلطات الجامعية لم تكن تلقى عنايتها الكافية بإنشاء المكتبات الجامعية، «ذلك أن جامعة باريس شأنها شأن كل الجامعات المبكرة لم تتقدم دفعة واحدة بل كان نموها بخطى وئيدة كبقية المعاهد التربوية المختلفة. وتركت مهمة إمداد المدرسين والطلبة بالكتب الضرورية للكليات أو قاعات الطلبة».(٧)

إذ يصف ماهر حمادة مكتبة كلية السوربون في باريس عام ١٢٨٩م على أنها :

«كانت غرفة طويلة وضيقة، أبعادها ٤٠ × ١٢ قدما تنيرها تسع عشرة كوة صغيرة من كل جانب من أجل دخول الضوء. وقد وضع في الغرفة ثمان وعشرين منضدة. وسلسلت الكتب الثمينة بالسلاسل، فقد ثبتت هذه الكتب بالسلاسل إلى الرفوف، ولكن السلاسل كانت طويلة إلى الحد الذي يسمح بإيصال الكتاب إلى المنضدة. وتسمى هذه الكتب الثمينة المسلسلة المكتبة الكبرى، وتضم الكتب الأكثر تداولا. أما الكتب عديدة النسخ أو الكتب القليلة التداول فكانت تسمى المكتبة الصغرى، وكانت تعار بموجب رهن. وكانت الكتب مرتبة حسب الموضوعات، ولم يكن بين هذه الكتب سوى أربعة كتب لغتها فرنسية، أما الباقي فلغته لاتينية، وأهم الموضوعات هي الإلهيات والقانون الروماني والطب. وأن عدد الكتب فيها وصل إلى ١٧٠٠ عنوان»(٨).

وقد استمرت مكتبات الكليات والمعاهد الأوربية على نفس النمط الذي كانت عليه مكتبة كلية السوربون ردحاً طويلا من الزمن، حيث لم تستكمل جامعة السوربون إنشاء مكتبتها المركزية الرئيسية إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. وتعد تلك المرحلة من نشوء المكتبات الأكاديمية مرحلة إرهاص إتصفت فيها المكتبات بمستوى متواضع من الممارسة المهنية نتيجة:—

١ — لتواضع حجم المؤسسات العلمية نفسها.

٢ — لقلة الباحثين والدارسين.

٣ — لندرة الملحوظة في المصادر.

٤ — لطبيعة الفلسفة التعليمية والمناهج السائدة.

٥ — للقيود والمعوقات في استخدام المكتبات.

٦ — لعدم استقرار المعايير والمتطلبات الفنية والمهنية للمكتبات مما فرض على تلك المكتبات نمطا اداريا متواضعا لم يخرجها عن دائرة المكتبات الكنسية القديمة التي أديرت بواسطة فرد واحد ONE MAN LIBRARY يتولى إدارة شئون الكتب المختلفة ملما بمجموعاتها، مشرفا على صيانتها والمحافظة عليها وفق القيود واللوائح التي يراها مناسبة. وهو نمط بدائي لا يحتمل الاخضاع للتحليل الاداري، ولا يزيد عن كونه إرهاصاً للمتغيرات التي استجدت على ساحة المكتبات الأكاديمية إبان عصر النهضة.

فالمتغيرات التي أحدثها عصر النهضة الأوربية، والتي تمثلت فيما يلي :

١ — اختراع الطباعة.

٢ — نشوء الجامعات والمعاهد ومراكز البحث.

٣ — العناية بالتراث الكلاسيكي ونشره.

٤ — العناية بجمع المصادر وإنشاء المكتبات.

٥ — التطور العلمي والثقافي والصناعي.

عُدَّتْ بمثابة المنطلقات الحقيقية الاساسية لنشوء ظاهرة المكتبات الجامعية في أوروبا، ذلك أن العديد من الكليات التي كانت قائمة أخذت تتوسع في برامجها وخدماتها نتيجة لمظاهر النهضة ونمو أعداد الطلاب مما استلزم الاعتراف بالعديد منها كجامعات متكاملة. ولم يمض عام ١٥٠٠م إلا وقد زادت الجامعات الأوربية في عددها إلى سبع وخمسين جامعة انتشرت من شمال أوروبا حتى جنوبها(٩).

ونتيجة لتلك المتغيرات الهائلة التي حدثت إبان عصر النهضة، فقد تضاعفت قنوات التأليف، وأخذت المطابع في إخراج العديد من الأعمال بنسخ متعددة، وتدفقت الكتب على المكتبات إما بشكل هبات وهدايا أو عن طريق قنوات التزويد بالشراء. كما راجت تجارة الكتب على نحو لم تعهده أوروبا من قبل. وفضلا عن ذلك فقد اهتمت الحملات الاستعمارية بجلب ذخائر التراث من مختلف المستعمرات، وايداعها تلك المكتبات المتنامية في المدن الأوربية وجامعاتها.

ولقد أثرت تلك المتغيرات على النمط القائم في المكتبات الأكاديمية في الكليات والمعاهد، إذ لم تعد قادرة على المضي قدما دون إعادة نظر في تلك الممارسات المتواضعة، فظهرت الاتجاهات الأولية نحو اقامة مكتبات مركزية رئيسية تلحق بالجامعات بحيث تستوعب الكم المتنامي من المصادر وتعمل على اتاحته للدارسين والعلماء. فأنشأت السوربون مكتبتها المركزية الرئيسية عام ١٨٦١م على أنقاض مجموعات متناثرة في عدد من الكليات وضمتها في مبنى رئيسي واحد. كما قامت جامعة أكسفورد ببناء مكتبتها المركزية بجهود بودلي وغيره في القرن السادس عشر الميلادي، تبعتها جامعة كمبيردج بإنشاء المكتبة المركزية للجامعة عام ١٩٣٤م، فجامعة ليدز عام ١٩٣٦م، ثم جامعة لندن عام ١٩٣٧م.

أما في ألمانيا فقد شهد القرن التاسع عشر تحولا كبيرا في حركة نمو المكتبات الجامعية المركزية، إذ اتجهت الجامعات الألمانية نحو تشييد مبان رئيسية للمكتبات المركزية، فقامت جامعات جوتنجي ودرسدف وهيدلبرج ولايبزيغ وبريسلاو وستراسبورغ بتشييد مكتبات مركزية ضمت أعداداً كبيرة من مصادر المعرفة البشرية.(١٠)

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن نشوء المكتبات الأكاديمية لم يكن يختلف كثيرا عما كان عليه الحال في الدول الأوربية. إذ نشأ نظام التعليم الجامعي في أول الأمر معتمدا على الكليات والمعاهد والتي اهتمت بتشييد إمكاناتها ومرافقها وخدماتها المساعدة حولها، فظهرت العديد من الكليات والمعاهد في مدن الولايات المتحدة، ثم تحولت تدريجيا منذ القرن الثامن عشر الميلادي لتصبح جامعات متكاملة. وقد كانت بداية المكتبات الأكاديمية في جامعات هارفارد وييل وكولومبيا وبيركلي عبارة عن مكتبات كليات متعددة ضمت بعضها على بعض مكونة فيما بعد المكتبات المركزية لتلك الجامعات الشهيرة.

على أن هذا التوسع الذي شهدته المكتبات الأكاديمية منذ أن كانت مكتبات صغيرة متواضعة تدار بفرد واحد أثناء عصر النهضة حتى أضحت بمثابة مؤسسات كبيرة تلبي حاجة كليات متعددة في عصر تتضاعف فيه المعرفة وتتسع أنماطها، استلزم اختيار نمط إداري يمكنها من تحقيق أهدافها المهنية. فقد شهد القرنان التاسع عشر والعشرون حركة نشطة في التخطيط لانشاء الجامعات الحديثة، الأمر الذي استوجب معه التخطيط لخدمة مكتبية إما أن تعتمد على قيام مكتبات لا مركزية تلحق بكليات الجامعة أو مكتبة مركزية واحدة تدعم رسالة الكليات بمفردها أو عبر شبكة من المكتبات الفرعية. كما شهدت معظم الجامعات القديمة حركة في إعادة تخطيط خدماتها على نحو يمكنها من تحقيق أهدافها العلمية بشكل أمثل.

وظهر منذ العقد الخامس من القرن العشرين إتجاه قوي في الجامعات الأمريكية والأوربية نحو إنشاء المكتبات المركزية، حتى أن كارل وايت CARL WHITE قد كتب عام ١٩٦٥ ما نصه ترجمة من اللغة الانجليزية :

«على الرغم من أن بعض الجامعات التي استحكمت فيها تقاليد إنشاء المكتبات اللامركزية قد استمرت، إلا أن معظم الجامعات قد أخذت سبيلها نحو التحول إلى إنشاء مكتبات مركزية رئيسية حيث تعبر عن رضائها التام بالنتائج. وإن من الجدير أن نلاحظ بأن جميع الجامعات التي تحولت إلى إنشاء مكتبات مركزية لم تحاول قط أن تعيد النظر فيما ذهبت إليه أو

تفكر في العودة إلى النمط السابق»(١١).

وقد تركت تلك الاتجاهات القوية في التحول من النمط اللامركزي DECENTRALIZED PATTERN إلى النمط المركزي CENTRALIZED PATTERN في المكتبات الجامعية آثارها على العديد من المكتبات القائمة فضلا عن تأثيرها المباشر على تخطيط الجامعات الجديدة. ولم تقتصر تلك الظاهرة على المكتبات الجامعية في الولايات المتحدة بل شملت معظم الدول الأوربية والدول النامية .

على أن من أهم الدوافع لهذا التحول في اختيار النمط المركزي هو ظهور حقائق جديدة تمثلت فيما يلي :

١ ــ التدفق الكمي الهائل في مجال المعلومات ومؤشرات تفجر المعلومات .

٢ ــ المحاولات التقليدية والآلية للسيطرة البيليوجرافية على المعلومات.

٣ ــ ظهور النظم والبرامج التعاونية في مجالات المصادر وتحليل البيانات والأعمال البيليوجرافية والخدمات المكتبية.

٤ ــ الاستخدامات الآلية في مجالات المكتبات والتوثيق والمعلومات.

٥ ــ الحاجات العلمية المتداخلة للباحثين - INTER DISCIPLENARY NEEDS .

٦ ــ ضرورة الترشيد المادي .

٧ ــ التقدم التكنولوجي الهائل في وسائل الاتصال وبث المعلومات.

الأمر الذي دفع بمعظم الجامعات إلى الأخذ بتلك الحقائق وإعادة النظر في برامج المكتبات الجامعية على ضوئها.

فقد أسندت جامعة رانجون في بورما إلى موريس جيلفاند GELFAND عام ١٩٥٩م دراسة النمط اللامركزي القائم في مكتبات الجامعة بغية الوصول إلى تحسين أوضاع الخدمة المكتبية المتردية في تلك الجامعة. وقد أوصت الدراسة المسحية التي أعدها جيلفاند بضرورة التوقف الفوري للنمط القائم واستبداله بمكتبة مركزية رئيسية تقوم بإعادة تنظيم الاجراءات الفنية وإعداد فهارس جديدة تجسد المتطلبات المهنية وتقوم بخدمة جميع كليات الجامعة عن طريق مكتبات فرعية ترتبط في إداراتها واجراءاتها بالمكتبة المركزية. وطالبت الدراسة بضرورة ضبط عمليات التزويد والاعداد والفهرسة بحيث تتم مركزيا وتعد المواد للاستعمال الفوري في مواقع مختلفة من الجامعة.(١٢)

وفي سان باولو بالبرازيل قام فسلر FUSSLER عام ١٩٦١م بإعداد تقرير مسحي لنمط المكتبات اللامركزية المنتشرة في أرجاء الجامعة. وقد لاحظ إنعدام الرابط فيما بينها فضلا عن الازدواجية في المجموعات فأوصى في تقريره.

«بضرورة إتمام طلبات الشراء بالنسبة للمواد المكتبية واشتراكات الدوريات مركزيا داخل مكتبة مركزية رئيسية وبأيدي المختصين من أمناء المكتبات. وأهمية التزويد المركزي في المكتبات الجامعية بما فيها تلك المكتبات ذات المجموعات المتميزة والظروف الخاصة. وفي النهاية فإن مركزية الاجراءات وخاصة بالنسبة للفهرسة والتصنيف لابد وأن تثبت تميزاً مهنياً فريداً.(١٣)

وفي عام ١٩٦٥ م أعد هوبكنز HOPKINS بناء على طلب من جامعة طهران دراسة مسحية لمكتبات جامعة طهران الايرانية، حيث أوضح في دراسته الأولية وجود عدد كبير من المكتبات الفرعية التي تدار لا مركزيا داخل الحرم الجامعي. ولم تكن هناك أي محاولات للتنسيق فيما بينها فضلا عن أنها كانت تكلف ميزانية الجامعة مبالغ طائلة. واقترحت الدراسة بدائل متعددة تدور جميعها في إطار النمط المركزي. وتمثل البديل الأول في قيام الجامعة بإنشاء مكتبة مركزية تضم عددا كبيرا من المجموعات المتناثرة في كليات الجامعة بحيث تتولى الوفاء بتجميع مصادر المعرفة وتنظيمها وبث خدماتها لكامل الحرم الجامعي مركزيا دون حاجة إلى الاستمرار في التشتت القائم من ذي قبل. أما

البديل الثاني فيتمثل في إنشاء مكتبة مركزية تضم أقسام التزويد والاجراءات الفنية والاعداد والادارة على أن يتم توزيع المقتنيات على المكتبات الفرعية القائمة لتتولى عن طريقها مهام انجاز الخدمات المكتبية.(١٤)

وفي دراسته المسحية لايجابيات النمط الاداري القائم في مكتبة جامعة دلهي بالهند أوصى كارل وايت WHITE عام ١٩٦٥م بأهمية الاستمرار في النمط المركزي داعيا إدارة الجامعة إلى دعم السياسة المركزية لإدارة مكتبة جامعة دلهي حيث يتولى الاشراف المباشر عليها أمين المكتبة المركزية للجامعة. وتحقق تلك المكتبة انجازا ملموسا في دعم البرامج التعليمية فضلا عن تجاوبها مع حاجة الباحثين ومدهم بالمصادر المتنوعة.(١٥)

وواجهت الجامعة الوطنية الهندسية في ليما بجمهورية البيرو مشاكل جمة نتيجة لوجود عدد من المكتبات الفرعية في الجامعة والتي كانت تدار بشكل لا مركزي، فقامت بتكليف وودوارد WOODWARD عام ١٩٦٦م لاعداد تقرير متكامل حول تلك المشكلة. وقد حملت اقتراحاته توصية بإنشاء مكتبة مركزية للجامعة تقوم بالاشراف وإدارة سائر مكتبات الجامعة بحيث تتولى مهام الاجراءات الفنية والتزويد والاعداد. ولاحظ أثناء مسحه لمقتنيات الجامعة عددا كبيرا من المكررات وفقدانا لموازين التعادل في نمو المجموعات فأوصى بضرورة الحد من الازدواجية في الشراء وايجاد تعادل موضوعي في نمو المقتنيات مختتما تقريره بتأكيد اهمية النمط المركزي في تسهيل إمكانية التطبيق الآلي على الخدمات المكتبية في الجامعة.(١٦)

وفي عام ١٩٦٧ م قدم فريزر بول POOLE تقريره الشهير حول مركزية الخدمات المكتبية إلى رئيس الجامعة الفدرالية في باهيا بالسلفادور حيث تناول فيه شرح مميزات النمط المركزي في الخدمات المكتبية الجامعية، مؤكدا على ضرورة تبنيها في مراحل إعادة تخطيط الجامعة. وأوضح بأن الخدمات المكتبية المؤهلة لدعم البرامج والأهداف الأكاديمية التي تسعى إليها أية جامعة حديثة متطورة لا تتم إلا من خلال نمط مركزي يتم تنفيذه عبر قيام مكتبة مركزية بالجامعة.(١٧)

وبناء على طلب من وزارة المعارف والثقافة بجمهورية أندونيسيا، أعد وليامسون WILLIAMSON عام ١٩٧٠م تقريرا تناول فيه دراسة أهم مشاكل المكتبات الجامعية في أندونيسيا، حيث لاحظ تردي خدماتها وتشتت مجموعاتها بين عدد من المكتبات الفرعية التي تعمل منفردة دون رابط أو تنسيق وأوصى بضرورة تبني النمط المركزي وسيلة ناجعة لتجاوز المشاكل القائمة.

« إن هيئة مركزية واحدة يمكنها أن تؤدي وبكفاءة بالغة كامل الاجراءات الفنية المركزية، وتعمل على الاستفادة من الطاقات البشرية المحدودة في إعداد أدوات مثالية تستفيد منها سائر المكتبات القائمة».(١٨)

وفي جامعة لندن، وهي التي تحتفظ حتى اليوم نتيجة لظروفها الخاصة بعدد من المكتبات الفرعية اللامركزية، قامت لجنة مصادر المكتبة :

COMMITTEE ON LIBRARY RESOURCES.

عام ١٩٧١ بإعداد دراسة أولية أوصت فيها مجلس المكتبات بجامعة لندن بضرورة اجراء دراسة شاملة تطرح إمكانية تطبيق النمط المركزي الكامل على المكتبات التابعة لجامعة لندن.(١٩)

وفي الولايات المتحدة الأمريكية أُعدت دراسات عديدة تناولت ترجيح اختيار النمط الاداري المركزي للمكتبات الجامعية، إلا أن أبرز تلك الدراسات هي دراسة بوز BOOZ حيث تناولت دراسة النمط الاداري القائم في المكتبة المركزية بجامعة كولومبيا، وقدمت عام ١٩٧٣م. وتعد مكتبة جامعة كولومبيا أبرز مثال قائم على النمط المركزي. وكانت أهم أهداف تلك الدراسة هي التعرف على مدى وفاء النمط المركزي لتلبية حاجات المستفيدين داخل الجامعة. وخلصت إلى أن الأنماط

السائدة في الولايات المتحدة هي التي تعتمد على المكتبات المركزية أو على تشكيل من المكتبات الفرعية التي ترتبط ارتباطا جيدا بمكتبة مركزية. وجاءت نتائج تلك الدراسة إلى أن :

« الخطط المركزية لمكتبة جامعة كولومبيا ستستمر في الوفاء بالاحتياجات الكاملة للجامعة ، وبشكل أكثر فعالية من البدائل الأخرى. وأن هناك عددا من الأسباب التي تدعو للاستمرار في النهج المركزي القائم، ذلك أن الخطط المركزية قد أثبتت نجاحا كبيرا في كولومبيا، وأن هناك أسبابا كثيرة أخرى تدعو للاعتقاد بأن هذه الخطط يمكن أن تطبق بنجاح تام في معاهد أخرى».(٢٠)

وتعد هذه الدراسات والتقارير من أهم النماذج المعاصرة التي تناولت بالمسح والتحليل والدراسة ظاهرة المكتبات الجامعية وأنماطها الادارية في عدد من دول العالم المختلفة. وباستثناء حالتي مكتبات جامعة كولومبيا وجامعة دلهي، فإن جميعها تتناول دراسة مكتبات جامعية متعددة تقوم على النمط اللامركزي، وتطرح حلولا تتفق على اختيار البديل المركزي كحل يؤدي إلى تجاوز المعوقات والمشاكل التي تواجهها الجامعات في النمط اللامركزي.

مراجع البحث

١ ـــ محمد ماهر حمادة. المكتبات في العالم: تاريخها وتطورها حتى مطالع القرن العشرين. الرياض، دار العلوم، ١٤٠١. ص ١٥٢ ـــ ١٥٣.

٢ ـــ الفريد هيسل. تاريخ المكتبات. ترجمة شعبان عبد العزيز خليفة. القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٣.

3 - Johnson, E.D. and Harris, M.H. History of Libraries in the Western World. 3d.ed. Metuchen, N.Y. The Scarecrow Press, 1976.

٤ ـــ محمد ماهر حمادة. نفس المرجع السابق.

٥ ـــ الفريد هيسل. نفس المرجع السابق. ص ٥٤.

٦ ـــ نفس المرجع السابق. ص ٥٣.

٧ ـــ نفس المرجع السابق: ص ٥٣.

٨ ـــ محمد ماهر حمادة. نفس المرجع السابق. ص ١٥٦.

٩ ـــ نفس المرجع السابق. ص ١٥٨.

١٠ ـــ نفس المرجع السابق. ص ٢٤٤ ـــ ٢٥١.

11 - White, Carl M.

A survery of the University of Delhi Library. Delhi: Planning Unit, University of Delhi, 1965. p. 76.

12 - Gelfand, Morris A.

«Report of the survery of the libraries of the University of Rangoon». Rangoon : 1959.

13 - Fussler, Herman H.

«A report on a general survery of libraries of the University of Sao Paulo». Chicago: 1961. p.7.

14 - Hopkins, Margaret L.

«A tentative report on the University of Tehran Library». Tehran: 1965.

15 - White, Carl M.

A survey of the University of Delhi library Delhi: Planning Unit, University of Delhi, 1965.

16 - Woodward, Rupert C.

«Report of a survey of the libraries of the National Engineering University, Lima, Peru». College Station, Texas: 1966.

17 - Pool, Frazer G.

« Centralization of library services: a report to the Rector of the Federal University of Bahia». Bahia, Salvador: 1967.

18 - Williamson, Williamson L.

«University library development in Indonesia: a report to the Ministry of Education and Culture, Republic of Indonesia». Djakarta: 1970. p. 17.

19 - University of London. Committee on Library Resources.

Report of the Committee on Library Resources. London: 1971.

20 - Booz, Allen & Hamilton, Inc.

Organization and staffing of the libraries of Columbia University : a case study. Westport, 1973. p. 43.

وعن نظام البريد والقضاء ومظاهر الأبهة والجلال التي اتصف بها خلفاء الفاطميين أنفسهم. كما تحدث عن اختصاصات موظفي البلاط السلطاني والموظفين الاداريين في دولة المماليك.(٦)

وكذلك كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» الذي وضعه النويري (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، من أشهر سلاطين دولة المماليك البحرية، فهو موسوعة كبيرة جاءت في خمسة أقسام، تناول فيها الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعي والطب والسياسة والتاريخ والأدب.(٧)

ثم كتاب «أخبار الدول وآثار الأول» للقرماني (ت١٠١٩هـ/ ١٦١٠م) الذي جاء في خمسة وخمسين باباً، وشمل معنى التاريخ، وبداية المخلوقات، والأنبياء والمرسلين، والخلفاء الراشدين، والخلفاء العباسيين، والخلفاء الفاطميين، ثم الأيوبيين والمماليك. ثم دولة بني العباس، وهي التي عاصر القرماني منها عهداً طويلاً هو النصف الأخير من القرن العاشر وصدر الحادي عشر الهجري، كما تناول القرماني في هذه الموسوعة غرائب العجائب في الأقاليم والبحار والأنهار والعيون، والآبار، والمدن والبلدان وما فيها من عجائب الآثار.(٨)

كتب التاريخ :

اهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بعلم التاريخ، فتدارسوه، ورووا أخباره، واهتموا بتدقيقها، وقد دفعتهم عوامل كثيرة لهذا الاهتمام منها تقاليدهم القديمة التي تهتم بالنسب والمفاخرات، ودعوة القرآن الكريم إلى الاهتمام بأحوال الماضين، ومكانة الرسول ﷺ والصحابة بين الناس، علاوة على أن العرب بطبيعتهم محافظون يهتمون بالسنن والتقاليد ويعملون على مراعاتها.(٩)

وقد أدى هذا إلى انتاج فكري هائل في التاريخ، فألفوا في مختلف الأزمنة والأقاليم كتباً في التاريخ تناولت جوانب متعددة ، لدرجة أن المسلمين لم يتركوا جانباً من جوانب النشاط الانساني دون أن يسجلوا تاريخه.(١٠)

ولقد سلك المؤرخون المسلمون في كتاباتهم التاريخية منهجين، **الأول** : التاريخ العام، **والثاني** : التاريخ المحلي أو الاقليمي.(١١)

ويندرج تحت النوع الأول وهو كتب التاريخ العام كتاب الطبري «تاريخ الأمم والملوك» أو «تاريخ الرسل والملوك» أو «تاريخ الطبري»، ويعتبر أقدم وأهم المراجع التي يعتمد عليها في دراسة التاريخ الاسلامي عامة، ويمتاز بدقة ما ورد فيه من المعلومات الكثيرة وبالدقة في تحري تلك المعلومات، مما يدل على ما اتصف به هذا المؤلف من علم غزير.(١٢)

وقد كتب الطبري تاريخه سنة بسنة، وهذا ما يسمى بالسَّنَوِيَّات أو الحَوْلِيَّات . ويبتدىء هذا التاريخ من خلق الانسان: فيتكلم عن آدم والجنة كما ورد في الكتب الدينية، ثم يسرد الأخبار الخاصة بالدولة الرومانية، ويصف العرب في الجاهلية، وفي صدر الاسلام، ويتكلم عن البعثة النبوية، فالخلافة وامتدادها وينتهي بها إلى سنة ٣٠٢هـ/٩١٥م.(١٣)

وأكمل بعض المؤرخين كتاب «تاريخ الأمم والملوك» للطبري، فقام عريب بن سعد القرطبي (ت ٣٦٦هـ/٩٧٦م) باكمال هذا الكتاب إلى سنة ٣١٠هـ، وأطلق على كتابه «صلة تاريخ الطبري» وهو ذيل لتاريخ الطبري، وقد ابتدأه من سنة ٢٩١هـ. وتناول مسكويه (ت ٤٢١هـ) في كتابه «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» الحوادث التي أعقبت ما دوَّنه الطبري في تاريخه، وينتهي إلى سنة ٣٢٧هـ، ورتبه على السنين الهجرية. وأكمل ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراوري الأصل، الأهوازي المولد، المتوفى سنة ٤٨٨ هـ، وزير الخليفة العباسي المقتدى (٤٧٦ ـــ ٤٨٧هـ) المعروف بأبي الشجاع، تاريخ مسكويه بتاريخه المعروف باسم «ذيل تجارب الأمم»، وتناول فيه الكلام على المدة الواقعة بين سنتي ٣٧٢هـ و٣٨٩هـ، ورتبه على السنين. كما كتب ابن الأثير (ت٦٣٠هـ) كتابه «الكامل في التاريخ» وبدأه من خلق الإنسان ووصل فيه إلى سنة ٦٢٨ هـ، أي إلى ما بعد الطبري بأكثر من ثلاثمائة سنة، وكتبه بطريقة السنوات على نسق كتاب

الطبري.(١٤)

ومن كتب التاريخ العام أيضا كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي (ت ٣٤٦هـ) ، وفيه يذكر قصة خلق العالم، ثم يعقبها بوصف طبيعة الأرض، ثم تواريخ الأمم القديمة من الفرس واليونان والرومان والعرب القدماء، ثم تكلم عن السيرة النبوية وتاريخ حكم الخلفاء الراشدين حتى وصل إلى سنة ٣٤٥ هـ.(١٥)

هذا بالنسبة للتاريخ العام، أما التواريخ المحلية أو الاقليمية، فهي وليدة الشعور بالقومية، وتعبير صادق عن ارتباط المؤرخ باقليمه واعتزازه بوطنه. ومن أمثلة هذه الكتب «بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن العديم الحلبي (ت٦٦٠هـ) الذي خصص هذا الكتاب لدراسة التاريخ السياسي لهذه المدينة، وعن اليمن كتاب «المفيد في أخبار زبيد» لعمارة اليمني (ت٥٦٩هـ) وقد أكمله ابن الربيع (ت ٩٩٤هـ) بكتاب عنوانه «كتاب بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد».(١٦) و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) و«تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر (ت٥٧١هـ).(١٧)

وفيما يختص بمصر كتاب «تاريخ مصر» للمسبحي (ت ٤٢٠هـ)، وكتاب «فضائل مصر وأخبارها وخواصها» لابن زولاق (ت٣٨٧هـ).(١٨) و«أخبار مصر» لابن ميسر (ت٦٦٧هـ)، ثم كتاب تاريخ مصر المعروف باسم «بدائع الزهور في وقائع الدهور»لابن اياس (ت٩٣٠هـ). وقد رتبه على شهور السنين الهجرية،ووصل فيه إلى سنة ٩٢٨هـ. وهو عبارة عن تاريخ مصر من أقدم العصور إلى أوائل العهد العثماني، وذكر فيه ما ورد في القرآن والحديث من فضائل مصر، وما اشتملت عليه من العجائب ومَنْ دخلها من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومَنْ وليها من الملوك وظهر بها من الأعيان. وتنحصر أهمية كتاب ابن اياس في الجزء الذي كتبه عن العصر الذي عاش فيه وهو عصر المماليك، كتبه في قالب روائي يشبه الأسلوب الذي كتب به الجبرتي تاريخ مصر الحديثة، وتكلم عن الحالة السياسية، ونظم الحكم، والثقافة، والحالة الاجتماعية، وزوال الخلافة العباسية من مصر — بعد سقوط دولة المماليك — وانتقالها إلى القسطنطينية على يد السلطان سليم الأول.(١٩)

كتب الجغرافيا والرحلات :

اهتم المسلمون منذ البداية بعلم تقويم البلدان أو الجغرافية، فوصفوا المدن والبلاد وذكروا طرقها وشعابها وحاصلاتها ومناخها، والذي دفع المسلمون إلى العناية بالجغرافية هو معرفة البلاد التي فتحها العرب زمن الخلفاء الراشدين، والأمويين، وذلك لتنظيم الجزية والخراج.(٢٠)

وازداد اهتمام العرب بهذا العلم منذ أن اتسعت رقعة الدولة الاسلامية في العصر العباسي بالفتوحات الجديدة، خاصة فيما وراء النهر والسند والتركستان، بوصف الأقاليم الاسلامية ومدنها، وذكر مسالكها والطرق المؤدية إليها وحاصلاتها ومناخها. ويعزون هذا الاهتمام بالمنافسة الواضحة بين الأقاليم المختلفة حيث توزعت مراكز الثقافة من الأندلس حتى تخوم الصين، وساعد على ذلك انتشار الاسلام واللغة العربية عقب الفتوحات.(٢١)

وقد ازدادت عناية المسلمين في أوائل القرن الرابع الهجري بعلم تقويم البلدان، وذلك لكثرة الأسفار والرحلات التي كان يقوم بها التجار وأهل العلم والرحالة والحجاج من سائر أنحاء الدول العربية الاسلامية، بقصد التجارة، أو لطلب العلم، أو الرغبة في المشاهدة، أو للحج إلى مكة، فكثرت المؤلفات.(٢٢)

ولقد تأثر الجغرافيون المسلمون قبل القرن الرابع الهجري بجغرافية اليونان عندما بدأوا ينقلونها إلى العربية، ومن أمثلة ذلك كتب «المسالك والممالك» لابن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ)، و«المسالك والممالك» للسرخسي (ت ٢٨٦ هـ)، و«صورة الأرض» للخوارزمي (ت في منتصف القرن ٣هـ)، و«البلدان» لليعقوبي (ت ٢٨٤هـ)، و«رسم المعمور في الأرض» للكندي (ت ٢٦٠هـ)، وغيرها.(٢٣)

وعلى هذه المدرسة العربية المتأثرة بجغرافية اليونان مدرسة عربية خالصة تمثل دور النضج في الجغرافية عند العرب في القرن الرابع الهجري وما يليه. وقد اهتمت هذه المدرسة بوصف أقطار العالم الاسلامي والتخصص في قطر واحد، والميل إلى وضع معاجم جغرافية، ويمثل الاتجاه الأول كتب «الأشكال أو صورة الأقاليم» للبلخي (ت ٣٢٢هـ)، و«مسالك الممالك» للاصطخري (ت في القرن ٤ هـ)، و«المسالك والممالك» لابن حوقل (ت ٣٨٠هـ)، و«أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي (ت ٣٨٧هـ).[٢٤]

والكتب الجغرافية المتخصصة في قطر واحد فيمثلها كتاب «صفة جزيرة العرب» للهمداني (ت ٣٣٤ هـ)، و«المسالك والممالك» للبكري (ت ٤٨٧هـ)، و«تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة» المعروف بكتاب «الهند» للبيروني (ت٤٤٠ هـ).[٢٥]

أما المعاجم الجغرافية التي وضعت في جغرافية المدن، كتاب «معجم ما استعجم» للبكري، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ).[٢٦] و«الروض المعطار في خبر الأقطار» للحميري (ت بعد ٨٦٦هـ).[٢٧]

وكما حظيت الجغرافية باهتمام العرب منذ أقدم العصور، فانهم قد فاقوا غيرهم من الشعوب في ميدان الرحلات والكشف الجغرافي، فلقد كانت الرحلات من أهم عوامل الترابط بين أنحاء العالم الاسلامي في عصور القوة، كما كانت من أهم خصائص المجتمع العربي الاسلامي في عصور الازدهار الحضاري. وقد ساعد على ذلك اتساع الدولة العربية بعد الفتوحات ، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المختلفة في سائر أقطار العالم الاسلامي، كذلك الرحلة للتجارة بين الأقطار الاسلامية في المشرق والمغرب، أو لأداء فريضة الحج إلى مكة، أو طلبا للاستطلاع وحباً في الاستزادة من معرفة شعوب العالم الاسلامي أو القيام بمهمة كأن يكون سفيراً للخليفة أو السلطان.[٢٨]

وقد كتب المؤلفون المسلمون كثيراً عن رحلاتهم فيما بين القرنين ٣هـ (٩م) و٩هـ (١٥م)، ولكنهم لم يفعلوا ذلك في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً. أما معظمهم فقد أدمجوا أخبار تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان.[٢٩]

وكان معظم الرحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم وتسجيل أخبار رحلاتهم وأسفارهم، والمسالك والطرق التي ساروا فيها، والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم، ويصفون المدن التي نزلوها، ومظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه، كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة. كما أن بعضهم وصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي مروا بها، ولعل ذلك يوضح الفارق بين الجغرافي والرحالة. فالرحالة يعتمد على المشاهدة والمعاينة، أما الجغرافي فيعمل على تغطية كل الأقليم الذي يتناوله بالبحث فيسأل ويستقصي، ويجمع المعلومات من الحجاج وطلبة العلم والمغامرين والتجار والملاحين.[٣٠]

ومن أشهر كتب الرحلات «سفرنامة» لناصر خسرو (٤٧١هـ)، و«الاشارات لمعرفة الزيارات» للهروي (ت٦١١هـ)، و«الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» لعبد اللطيف البغدادي (ت٦٢٩هـ)، و«تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» المعروف «برحلة ابن جبير» لابن جبير (ت٦١٤هـ)، و«رحلة المغرب والأندلس» لابن رشيد السبتي الفهري (ت٧٢١هـ)، و«تحفة الألباب ونخبة الاعجاب» لأبي حامد الغرناطي (ت٥٦٥هـ) ، و«تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» المعروف «برحلة ابن بطوطة» لابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ).[٣١]

كتب الخطط :

الخطة وجمعها خطط هي الأرض التي ينزلها الانسان ولم ينزلها من قبله نازل، أوما يختطه الانسان لنفسه من الأرض أي يجعل لها حدوداً ليعلم أنها له. وقد اتسع معناها فامتد إلى الحي الذي تختص به القبيلة أو أصحاب مهنة واحدة أو طائفة من الناس عند

تعمير مدينة من المدن.(٣٢)

ومن أشهر كتب الخطط كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو المعروف باسم «الخطط» للمقريزي (ت٨٤٥هـ). وقد بدأه بذكر الأرض، ثم تكلم عن موضع مصر من الأقاليم وحدودها وجهاتها الأربع وجبالها وأنهارها. ووصف المدن المصرية مثل الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد وأسوان والفيوم، والآثار المصرية القديمة والوسيطة، كما عني بدراسة تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري.(٣٣)

ونظراً لأهمية «الخطط المقريزية» تصدى بعض كتاب القرن الحادي عشر الهجري لاختصارها في مجلد واحد، وأطلق عليها «الروضة البهية في تلخيص كتاب المواعظ والاعتبار المقريزية»، ولخصها أيضا شمس الدين محمد بن أبي السرور البكري (ت١٠٨٧هـ) في مجلد واحد، وأطلق عليه «قطف الأزهار من الخطط والآثار».(٣٤)

ومن كتب الخطط أيضا كتاب «تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والبقاع المباركات» للسخاوي (ت٩٠٢هـ)، وهو عبارة عن دليل لخطط المشاهد والمزارات والبقاع المقدسة، وبيان بالأماكن التي في القاهرة والتي تقع فيها مشاهد الحسين والامام الشافعي والسيدة نفيسة وغيرها من المزارات والمشاهد التي وسمت بميسم التقديس والبركة، ووصف لشوارع القاهرة وجوامعها ومدافنها وزواياها في عصره.(٣٥)

ومن الخطط التي ظهرت حديثاً «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة» لعلي مبارك (ت١٣١١هـ). تناول الكلام فيها على موضع القاهرة قبل وصول جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي المعزلدين الله الذي تم على يديه فتح مصر وتحويلها من ولاية أخشيدية خاضعة للخلافة العباسية إلى خلافة فاطمية مستقلة، ثم تناول ما طرأ على القاهرة من التغييرات والتقلبات بتوالي العصور. وتكلم عن تاريخ الدول التي حكمت مصر منذ عصر الفاطميين، مفصلاً الكلام عن مدينة القاهرة وما بها من المساجد والحارات والأزقة والدروب، وعلى مدينة الاسكندرية وحوادثها الخاصة بها وحالتها في الأزمان السابقة وفي عصر المؤلف. وقد رتب المدن والقرى ترتيبا هجائيا تيسيرا للباحثين.(٣٦)

كما وضع محمد كرد علي «خطط الشام»، وهو كتاب تاريخي وجغرافي، جاء في ثلاثة أقسام:

الأول ــ في التاريخ السياسي إلى سنة ١٣٣٤ هـ.

والثاني ــ في التاريخ المدني.

والثالث ــ معجم في وصف البلدان والقرى والجبال والأودية.(٣٧)

كتب التراجم والطبقات :

يقصد بالتراجم المؤلفات التي تتحدث عن المشاهير والأعلام في كل زمان ومكان، وفي كل مجال من مجالات المعرفة. والحقيقة أنه لم تحظ لغة من اللغات بمثل ما حظيت به اللغة العربية من كتب التراجم.(٣٨)

فهناك كتب التراجم العامة التي لا تلتزم بعصر ولا بيئة ولا موضوع معين، وإنما تترجم للمشاهير في كل مكان من الدولة الاسلامية حتى عصر المؤلف، مثل كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان (ت٦٨١هـ). وقد جمع فيه المؤلف تراجم العلماء والملوك والأمراء والوزراء والشعراء والكتاب، وكل من له شهرة بين الناس، والذين عاشوا في مختلف العصور حتى القرن الذي عاش فيه المؤلف، وهو القرن السابع الهجري، وبالتحديد سنة ٦٥٤هـ التي رتب فيها المعجم.(٣٩) و«فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) وهو ذيل لكتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان، و«الوافي بالوفيات» لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ)، و«المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» لابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ).(٤٠) و«التاريخ الكبير المقفى»

للمقريزي (ت ٨٤٥هـ) الذي ترجم فيه لمشاهير الرجال والنساء من المسلمين والنصارى، ويقع في ستة عشر مجلداً، وقد مات المقريزي قبل أن يتم هذا الكتاب.(٤١)

ولكن بعد ذلك أصبح من الصعب على المؤلفين أن يجمعوا في مرجع واحد تراجم لجميع المشاهير، وذلك لرحابة هذا الميدان. لذلك كان هناك اتجاه جديد في تأليف كتب التراجم، وهو تراجم القرون، وهي امتداد للتراجم العامة، لأنها لا تتقيد برجال فن من الفنون أو اقليم من الأقاليم الاسلامية، وإنما تقتصر على رجال قرن واحد عاش فيه المؤلف أو أدرك بعضه ومن أمثلة هذه الكتب: «مختصر المائة السابعة» في تراجم أعيان ذلك القرن للمؤرخ علم الدين البرزالي (ت٧٣٩هـ)، و«البدر السافر وتحفة المسافر» وهو أيضا كتاب في تراجم أعلام القرن السابع الهجري، ولا يزال هذان الكتابان مخطوطين.(٤٢) ويتميز القرن الثامن الهجري بأنه أول قرن وُضِعَ فيه مُؤَلَّف طويل في تراجم أعيانه وهو «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، ثم تلاه كتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للسخاوي (ت٩٠٢هـ)، و«الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة» للغزي (ت١٠٦١هـ)، و«خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمحبي (ت١١١١هـ)، و«سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي (ت ١٢٠٦هـ) و «المسلك الأذفر في تراجم علماء القرن الثالث عشر» للألوسي (ت١٣٣٢هـ)، و«تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر» لأحمد تيمور (ت١٣٤٨هـ).(٤٣)

وبعد ذلك اتجه مؤلفو كتب التراجم إلى تضييق التغطية في كتبهم على أساس إقليمي، فظهرت منذ القرن الخامس الهجري كتب تترجم لرجالات اقليم معين، مثل «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر» للحميدي (ت٤٨٨هـ)، و«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ).(٤٤) ومثل تواريخ المدن «كتاريخ جرجان» أو «معرفة علماء أهل جرجان» لحمزة بن يوسف السهمي (ت٤٢٧هـ)، و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، و«تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر (ت٥٧١هـ)، و«بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن العديم (ت٦٦٠هـ).(٤٥)

هذا بالنسبة للتراجم العامة، أما التراجم المتخصصة فقد كثرت وتنوعت تنوعا كثيراً، ففي منتصف القرن الثاني الهجري كتب ابن اسحق(٤٦) سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وجاء ابن هشام (ت٢١٨هـ) فهذبها وأذاعها بين الناس حتى أصبحت تعرف بسيرة ابن هشام.(٤٧)

وبعد ظهور السيرة النبوية بدأت التآليف العربية في تراجم الصحابة والتابعين وتابعيهم ورواة الحديث تتتابع منذ مطلع القرن الثالث الهجري. وفي القرن الرابع الهجري تنوعت كتب التراجم تنوعا كبيرا ،فظهرت تراجم للشعراء، وأخرى للغويين والنحاة، كما ظهرت تراجم للأطباء والفقهاء والمفسرين والقراء والمتصوفين والفلاسفة وغيرهم في مختلف فروع المعرفة التي كانت متاحة في تلك العصور.(٤٨)

ولم يقنع المؤلفون العرب بالتراجم التقليدية، وإنما مضوا يطورونها ويستحدثون نمطاً جديدا يعرف بالطبقات. والفرق بين التراجم والطبقات، أن الأولى تتناول الأشخاص في ترتيب هجائي أو زمني أو مكاني. أما الطبقات فإنها تتقدم خطوة أخرى، لأنها لا تكتفي بالترجمة وانما تصنف المُتَرْجَمُ لهم تصنيفا تنازليا في فئات أو درجات بغض النظر عن أزمنتهم وأمكنتهم وترتيب أسمائهم، وداخل كل طبقة قد يلجأ إلى الترتيب الهجائي أو الجغرافي أو التاريخي تيسيراً على الباحثين.(٤٩)

ومن أمثلة هذه الكتب «الطبقات الكبرى» لابن سعد (ت٢٣٠هـ). وقد بدأه بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه، ثم يترجم لما يقرب من ثلاثة آلاف من الصحابة والتابعين موزعين على طبقات على أساس السبق إلى الاسلام. فالطبقة الأولى للصحابة الذين شهدوا بدراً مع تقديم المهاجرين

على الأنصار، والطبقة الثانية لمن لم يشهد بدراً من المهاجرين، ثم الصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة. ثم ينتقل ابن سعد إلى تصنيف الصحابة والتابعين تصنيفا إقليميا، فإلى جانب تراجم المكيين والمدنيين، هناك تراجم لمن نزل الطائف واليمن والبحرين والكوفة والبصرة، وبغداد والشام ومصر وإفريقية.(٥٠)

وقد قُسِّمَتْ تراجم رجال الأقاليم المختلفة إلى طبقات يتفاوت عددها من أقليم لآخر. فالتابعون من أهل المدينة ــ مثلا ــ وزِّعُوا على سبع طبقات، والمكيون الذين رووا عن عمر بن الخطاب وغيره وضِعُوا في خمس طبقات. ويختم ابن سعد كتابه بفصل في تراجم النساء مبتدئا بنساء النبي صلى الله عليه وسلم، ثم النساء المهاجرات، يليهن نساء الأنصار، وأخيراً النساء اللاتي لم يروين عن النبي.(٥١)

وهناك كتاب «الاصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ). وقد قَسَّمَه إلى أربع طبقات، الأولى لمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو غيره، والثانية في ذكر الصحابة الذين ولدوا زمن الرسول عليه الصلاة والسلام، والثالثة في ذكر المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والاسلام ولم يرد أنهم اجتمعوا بالنبي، والرابعة في ذكر الصحابة الذين اشتهروا بالكنى، وفي ذكر النساء. وقد رتبت التراجم ترتيبا هجائيا داخل كل طبقة.(٥٢)

ولقد لقي فقهاء المذاهب الأربعة كثيراً من عناية المؤرخين وكُتَّاب الطبقات حين ترجموا لهم في طبقات الفقهاء عامة، أو في طبقات المذهب الذي يمثلونه. وكان رجال كل مذهب حريصين على أن يؤرخوا لطبقات الرجال فيه منذ إتصال الطبقة الأولى بالامام الأول للمذهب. ومن أقدم هذه الكتب «طبقات الفقهاء والمحدثين» للهيثم بن عدي (ت٢٠٧هـ)، و«طبقات الفقهاء» لابن اسحق الشيرازي (ت٤٧٦هـ).(٥٣)

أما الطبقات الخاصة برجال كل مذهب فكثيرة، فللشافعية «طبقات الشافعية الكبرى» التي ألفها تاج الدين السبكي (ت٧٧٠هـ)، و«طبقات الشافعية» لأبي قاضي شهبة الدمشقي (ت٨٥١هـ). وللحنفية «طبقات الحنفية» لعبد القادر بن أبي الوفاء القرشي (ت٧٧٥هـ)، وهو أولُ من صنف في تراجمهم وعنوانه «الجواهر المضية في طبقات الحنفية». وللحنابلة «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلي (ت٥٢٦هـ)، وللمالكية «الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب» لابن فرحون اليعمري (ت٧٩٩هـ).(٥٤)

البليوجرافيات :

هي قوائم الكتب التي تحصي الانتاج الفكري وتحاول تصنيفه وتحديد أماكن وجوده، وهي هامة جداً للباحثين والدارسين نظراً لضخامة هذا الانتاج، مما جعل من الاستحالة الإلمام به ما لم يحصى ويبوب بطريقة علمية تُيَسِّر الرجوع إليه.(٥٥)

ولقد عرف العرب المسلمون البليوجرافيات منذ القرن العاشر الميلادي، وأول من صَنَّفَ فيها ابن النديم صاحب كتاب الفهرست، وكان ذلك في سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م، ليكون «فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها.. منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة».(٥٦)

وقد قَسَّمَ ابن النديم كتابه إلى عشر مقالات تختص كل منها بموضوع معين، فمقالة للنحويين واللغويين، وأخرى للشعر والشعراء، وثالثة للكلام والمتكلمين، ورابعة للفقه والفقهاء والمحدِّثين، وخامسة للفلسفة والعلوم القديمة كالهندسة والحساب والتنجيم والطب... الخ، والسادسة للفقه والفقهاء، والسابعة للفلسفة والفلاسفة، والثامنة للخرافات والشعوذة والسحر والغرائب، والتاسعة في المذاهب والديانات غير الاسلامية، وأما العاشرة فتحوي أخبار الكيماويين والصنعويين وأسماء كتبهم.(٥٧)

وأسلوب ابن النديم في التأليف أن قدم الكلام في الفنون التي

بويها،ثم يترجم للمؤلفين في كل فن ويسرد مؤلفاتهم جميعا.(٥٨)

والحقيقة أن الفهرست لابن النديم هو أقدم وثيقة شاملة تبين مدى ما وصلت إليه الحياة العقلية الاسلامية في عصر من أزهى عصور الحضارة الاسلامية وهو عصر بني العباس، ولولاه لضاعت أسماء كثير من كتب تراثنا وأوصافها كما ضاعت الكتب نفسها ضحية الغزوات الخارجية والفتن الداخلية التي تعرضت لها الأمم الاسلامية فيما بعد.(٥٩)

وتلى «الفهرست» كتاب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم» لطاشكبري زادة (ت٩٦٨هـ/١٥٦١م). وهو مصدر أصيل وانعكاس صادق وأمين للحياة الفكرية للمسلمين بعد الغزو المغولي.(٦٠)

والكتاب ليس ببليوجرافية فحسب، وإنما موسوعة في موضوعات العلوم العربية وغيرها من العلوم الاسلامية. وقد رتبه المؤلف ترتيبا مصنفا وفق تصوره للمعرفة البشرية السائدة في عصره. وقد ذكر أهم المؤلفات والمؤلفين ولمحات من أخبارهم.(٦١)

ويهدف الكتاب إلى تصفية النفس الإنسانية وإيصالها إلى السعادة عن طريق الاطلاع على العلوم والمعارف، ولذلك سماه «مفتاح السعادة»، وبعبارة أخرى فهو يهدف إلى ارشاد الراغبين في تحصيل العلوم إلى طريقة تحصيلها.(٦٢)

وينقسم الكتاب إلى مقدمات أربع وسبع دوحات. والمقدمات تنصب جميعا على العلم والتعلم والتعليم والمعلم والمتعلم وهي مقدمات تربوية. ويقسم المؤلف كتابه بعد هذه المقدمات إلى قسمين رئيسيين: الأول يضم علوم النظر وهي الدوحات الست الأولى. والقسم الثاني يضم علوم التصفية التي هي ثمرة العلم بالفعل وهي الدوحة السابعة. والدوحات السبع هي: الدوحة الأولى: في بيان العلوم الخطية، والثانية: في علوم تتعلق بالألفاظ وهي علوم اللغة العربية والأدب العربي، والثالثة: في علوم باحثة عما في الأذهان من المعقولات الثابتة، مثل علم المنطق وعلم آداب الدرس وعلم الجدل، والرابعة : في العلوم المتعلقة بالأعيان، والخامسة: في الحكمة العملية، والسادسة: في العلوم الشرعية، وهي علوم الدين الاسلامي (فيما عدا علوم التصوف)، والسابعة: في علوم الباطن، وهي علوم التصوف.(٦٣)

وقد دأب المؤلف أن يمهد لكل دوحة بمقدمة توضح مجال العلوم التي تشتمل عليها الدوحة، ويقسم كل دوحة إلى شعب، وكل شعبة إلى علوم أو مطالب أو عناقيد بحسب قابلية الشعب للتفريع. وهو يذكر موضوع العلم والغرض منه ومبادئه وفائدته، ثم يذكر أهم المؤلفات في كل علم، وحينًا يذكر الكتاب يعرج على ترجمة مؤلفه، وكثيرا ما يستطرد فيذكر المؤلفات الأخرى لنفس المؤلف، كما قد يذكر بعض الطرائف.(٦٤)

وتلى «مفتاح السعادة» كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ/١٦٥٧م)، وأهميته لا ترجع إلى أنه أضخم الببليوجرافيات العربية وأشملها فحسب، وإنما هو يمثل الصورة الحقيقية للحياة الفكرية العربية حتى القرن الحادي عشر للهجرة، لأن أغلب الكتب التي ذكرها موجودة بالفعل بخلاف الكتب التي وردت في فهرست ابن النديم والتي فقد معظمها..(٦٥)

فالكتاب قائمة ببليوجرافية ضخمة بالكتب العربية وبعض الكتب الفارسية التي تُيَسَّر للمؤلف أن يقف عليها. فقد اطلع حاجي خليفة على الكتب المؤلفة قبله في موضوعات العلوم واستفاد منها وخاصة كتاب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» لطاشكبري زادة. لذلك جاء الكتاب أوفى الببليوجرافيات العربية وأشملها وأكثرها قيمة، وقد اشتمل على ١٥٠٠٠ كتاب ورسالة، وتحدث فيه عما يزيد على ٣٠٠ علم وفن وسجل ما يزيد على ٩٥٠٠ من المؤلفين.(٦٦)

وقد بدأه بمقدمات تحدث فيها عن العلم وتقسيمه وعن منشأ العلوم والكتب ،وعن المؤلفين والمؤلفات. وبعد ذلك تبدأ مادة

الكتاب، وقد رتبها ترتيباً هجائياً واحداً، أدمج فيه رؤوس الموضوعات والعناوين في تسلسل واحد، مبتكرا بذلك طريقة تقربنا من العصر الحديث، وهو أول من أدخل هذه الطريقة على ترتيب الكتب ورؤوس الموضوعات. وهو يذكر شروح الكتاب أو حواشيه مع الكتاب نفسه. وإذا لم يكن الكتاب عربيا ذكر أنه تركي أو فارسيّ أو مترجم.(٦٧)

وهناك عدة ذيول لهذا الكتاب أهمها «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لاسماعيل البغدادي (ت١٣٣٩هـ/١٩٢٠م)، وقد استدرك فيه ما فات حاجي خليفة من مؤلفات أو مما أُلّف بعد زمانه، وقد بلغت نحو ١٩٠٠٠ كتاب، رتبها هجائياً، ويذكر اسم المؤلف بالكامل، وتاريخ مولده ووفاته، وأحيانا متى فرغ من تأليف الكتاب.(٦٨)

وقد تتابعت الأعمال البيليوجرافية منذ عصر ابن النديم إلى أن أخرج يوسف اليان سركيس كتابه «معجم المطبوعات العربية والمعربة» ولعل الفارق الجوهري بين هذا الكتاب وبقية الكتب السابق ذكرها، أن تلك الكتب تتعاون معاً في تغطية ميدان المخطوطات العربية، بينا «معجم المطبوعات» يقصر نفسه على المطبوع دون المخطوط، فاشتمل هذا المعجم على كل ما طبع بلغة العرب سواء كان تأليفاً أو ترجمة، وسواء طبع في الشرق أو في الغرب منذ ظهور الطباعة حتى سنة ١٩١٩م.(٦٩) وقد رتب ترتيبا هجائيا دقيقا ولكن بأسماء الشهرة للمؤلفين، وتحت كل مؤلف تُذْكَرُ مؤلفاته هجائيا. وفي آخر الكتاب رتبت الكتب التي لم يُعْلَم مؤلفوها هجائيا بعناوينها.(٧٠)

ولقد شهد العصر الحديث عملين بيليوجرافيين أجنبيين عن التراث العربي على درجة كبيرة من الأهمية والشمول، كلاهما ألماني، وكلاهما يحاول أن يقدم حصرا شاملاً للتراث العربي المخطوط في مختلف مكتبات العالم، أولهما «تاريخ الأدب العربي» لكارل بروكلمان (١٨٦٨ ــ ١٩٥٦م)، وترجم منه الدكتور عبد الحليم النجار ثلاثة أجزاء. وهذا الكتاب ثبت مطول لجميع الكتب التي ألفها العرب منذ العصور القديمة إلى أوائل القرن العشرين، فيتحدث عنها وفقا للفترات الاسلامية ودولها المعروفة. ويذكر عن كل مؤلف سيرته الذاتية وقائمة بمؤلفاته، ومكان حفظ المخطوطات التي وصلت إلينا، والطبعات التي نشرت منها وما كتب اختصاراً لها أو تعليقا عليها.(٧١)

وأما الثاني فهو «تاريخ التراث العربي» لفؤاد سزكين Faud Sezqin . وقد سار صاحب الكتاب على نفس خطة بروكلمان في كتاب «تاريخ الأدب العربي» واعتمد عليه، إلا أنه أضاف معلومتين هامتين هما: عدد صفحات المخطوط وتاريخ نسخه، فأولهما تعطينا فكرة عن حجم الكتاب، وثانيهما ــ وهي الأهم ــ تبين لنا مدى قدمه ومدى أصالته، وبعبارة أخرى مدى قربه من عصر المؤلف.(٧٢)

خاتمة :

وبعد، فإنه يمكن الاستفادة بكلا النوعين من المصادر (المادية غير المقصودة، والروائية المقصودة) معا في حالة توافرهما، وذلك بأن يستعان بالأولى في التحقق من صحة الأخرى، أما في حالة عدم وجودها فإنه يستعاض عنها بالمصادر الروائية المقصودة.(٧٣)

التعليقات العلمية والحواشي

* نشر القسم الأول من هذا المقال والخاص بالمصادر المادية غير المقصودة بالمجلة عدد رجب ١٤٠٥ هـ (مارس ١٩٨٥ م).

١ ــ حسن الحلوة : الدبلوماتيقا، مجلة كلية الآداب / جامعة القاهرة، مج ٢٧، جـ ١، ٢، مايو، ديسمبر ١٩٦٥، ص ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥.

٢ ــ مثل «دائرة معارف القرن العشرين» لمحمد فريد وجدي، و«دائرة معارف البستاني» التي بدأها بطرس البستاني في سنة ١٨٧٦م، وأكملها أقرباؤه من بعده حتى بلغ مجموع ما ظهر منها أحد عشر مجلداً تنتهي عند كلمة «عثمانية». وحاول فؤاد البستاني إنشاء موسوعة جديدة تتخذ من تلك الدائرة نواة لها، وصدر الجزء الأول منها سنة ١٩٥٦ ولم تكتمل هي الأخرى حتى الآن.
أنظر، عبد الستار الحلوجي: مدخل لدراسة المراجع. القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٩.

٣ ــ نفس المرجع، ص ص ٢٩ ــ ٣٠.

٤ ــ نفس المرجع، ص ٣٠.

٥ ــ علي إبراهيم حسن: استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الاسلامي العام، وفي التاريخ المصري الوسيط. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣، ص ص ١٤٨ ــ ١٤٩.

٦ ــ محمد عبد السلام كفافي: الأدب الموسوعي عند العرب في العصور الوسطى، مجلة الكتاب العربي، ع ٤٦، يوليو ١٩٦٩، ص ص ٢٤ ــ ٢٥، علي إبراهيم حسن: المرجع السابــق، ص ص ١٦٨ ــ ١٧٠.

٧ ــ عبد الجبار عبد الرحمن: دليل المراجع العربية والمعربة. البصرة، دار الطباعة الحديثة، ١٩٧٠، ص ٢٦.

٨ ــ علي إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص ٢٠١.

٩ ــ روزنتال، ف.: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة د. صالح أحمد العلي. بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٦٣، ص ص (ب ــ جـ).

١٠ ــ نفس المرجع، ص (جـ).

١١ ــ السيد عبد العزيز سالم: التاريخ والمؤرخون العرب. الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨١، ص ٨٢.

١٢ ــ علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ١٣١، روزنتال، ف: المرجع السابق، ص ١٨٥.

١٣ ــ علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ص١٣١ ــ ١٣٢، روزنتال، ف: المرجع السابق، ص ١٠٢، ١٨٥ ــ ١٨٦.

١٤ ــ علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ص ١٣٢ ــ ١٣٣.

١٥ ــ روزنتال ، ف : المرجع السابق، ص ص ١٨٧ ــ ١٨٨.

١٦ ــ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ص ١٠٧ ــ ١١٠، روزنتال، ف: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

١٧ ــ عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص ص ٥٥ ــ ٥٦.

١٨ ــ روزنتال، ف: المرجع السابق، ص ص ٢١٢ ــ ٢١٣.

١٩ ــ علي ابراهيم حسن: المرجع السابق، ص ص ١٩٧ ــ ١٩٨.

٢٠ ــ سيدة اسماعيل كاشف: مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه. القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٦، ص ٣٨.

٢١ ــ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ص ١٨٣ ــ ١٨٤.

٢٢ ــ سيدة اسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص ص٣٨ ــ٣٩، السيد عبد العزيز سالم :المرجع السابق، ص١٨٤.

٢٣ ــ أنظر، سيدة اسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص ص ٤١ ــ ٤٢، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ص ١٨٤ ــ ١٨٥.

٢٤ ــ نفس المرجع السابق، ص ص ١٨٩ ــ ١٩٣.

٢٥ ــ نفس المرجع، ص ص ١٨٨ ــ ١٩١.

٢٦ ــ علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ص ١٠٠ ــ ١٠١.

٢٧ ــ السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص١٩٧.

٢٨ ــ زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. القاهرة، دار المعارف، ١٩٤٥، ص ٢٣، ٢٦ــ٣١، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٢١١.

٢٩ ــ سيدة اسماعيل كاشف : المرجع السابق، ص ٧٠.

٣٠ ــ نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب. بيروت، ١٩٦٢، ص ١٤٨، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق،ص ص٢١٢ ــ ٢١٤.

٣١ ــ انظر، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ص ٩٠ ــ ١٠٤، سيدة اسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص ص ٧٢ ــ ٧٤، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ص ٢١٦ ــ ٢٣٣.

٣٢ ــ سيدة اسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص ص ٦٤ ــ ٦٥.

٣٣ ــ علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص١٧٢، أحمد عطية الله: القاموس الاسلامي، مج ٢. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية،

١٩٦٦، ص٢٥٩.

٣٤ ــ علي إبراهيم حسن: المرجع السابق،ص ١٧٣.

٣٥ ــ نفس المرجع، ص ١٩١.

٣٦ ــ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ج٢، ص٢٥٩، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ص١٧٣ ــ ١٧٤.

٣٧ ــ أحمد عطية الله: المرجع السابق، ج٢، ص ٢٥٩، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ١٧٤.

٣٨ ــ عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص٤٩.

٣٩ ــ محمد عبد الغني حسن: التراجم والسير. القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٥، ص٣٩، ٤٣ــ٤٤، عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص ص٤٩ ــ ٥٠.

٤٠ ــ علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ١٥٧، ١٦١، ١٩٠.

٤١ ــ نفس المرجع السابق، ص ١٧٩.

٤٢ ــ أنظر، محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص ص ٤٦ ــ ٤٧.

٤٣ ــ أنظر، عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص ص ٥٢ ــ ٥٣، محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص ص ٤٧ ــ ٤٨، عبد الجبار عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ص٤٥٤ ــ ٤٥٦، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ص ١٩٢ ــ ١٩٣.

٤٤ ــ عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص٥٥، علي إبراهيم حسن: المرجع السابق، ص ١٩٤.

٤٥ ــ كتب تاريخ المدن تبدأ كلها بالتأريخ للمدينة والحديث عن أحوالها الاقتصادية ومظاهر الحضارة والعمران بها، ثم تترجم لمن عاش فيها أو رحل إليها أو رحل منها من العلماء والفقهاء والأدباء.. الخ. وهي إلى التراجم أقرب منها إلى التاريخ.

أنظر، عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص ص٥٥ ــ ٥٦، عبد الوهاب ابراهيم أبو سليمان: كتابه البحث العلمي ومصادر الدراسات الاسلامية، ص ص ٦٠١ ــ ٦٠٦، محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص٧٣، روزنثال، ف: المرجع السابق، ص ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤.

٤٦ ــ سُمِّيَت الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتبُ فيها، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة. وأول ما استعملت لفظة السيرة في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسمي المؤلفون فيها بأصحاب السير، إلا أن ذلك لم يمنع مؤلفا في أواخر القرن الثالث الهجري هو أحمد بن يوسف الداية ــ الكاتب المصري ــ أن يؤلف كتاباً في «سيرة أحمد بن طولون». ولعل هذه أول مرة ينتقل فيها استعمال لفظة «السيرة» من سيرة النبي إلى سيرة غيره من الرجال.

نفس المرجع، ص ٢٧.

٤٧ ــ عبد الستار الحلوجي : المرجع السابق، ص ٥٧.

٤٨ ــ نفس المرجع والصفحة، محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص ص ٥٣ ــ ٧٣.

٤٩ ــ عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص ٥٨.

٥٠ ــ أنظر، محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص٥٣، عبد الجبار عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ٤٦٣.

٥١ ــ نفس المرجع، ص ص ٤٦٣ ــ ٤٦٤.

٥٢ ــ محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص ٥٤، عبد الجبار عبدالرحمن: المرجع السابق، ص ٤٦٤.

٥٣ ــ محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص ٥٤.

٥٤ ــ عبد الجبار عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ص ٤٦٥ ــ ٤٦٨، محمد عبد الغني حسن: المرجع السابق، ص ص ٥٤ ــ ٥٥.

٥٥ ــ عبد الجبار عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ٢٦.

٥٦ ــ محمد ماهر حمادة: المصادر العربية والمعربة. بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٧٢، ص ٣٤.

٥٧ ــ عبد الستار الحلوجي: من تراثنا، ابن النديم وكتابه الفهرست، مجلة كلية اللغة العربية/ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية. الرياض، ع٧ (١٩٧٧م)، ص ٤٦٣، محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص ص ٣٨ ــ ٣٩.

٥٨ ــ عبد الجبار عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ٢٨.

٥٩ ــ عبد الوهاب أبو النور: أربعة كتب في البليوجرافية العربية، مجلة الكتاب العربي ، ع ٤٩، أبريل ١٩٧٠م، ص ١٤.

٦٠ ــ عبد الستار الحلوجي: مدخل لدراسة المراجع،ص ٨٣.

٦١ ــ عبد الوهاب أبو النور: المرجع السابق، ص ١٦.

٦٢ ــ نفس المرجع والصفحة.

٦٣ ــ نفس المرجع، ص ص ١٦ ــ ١٧.

٦٤ ــ نفس المرجع، ص ١٧.

٦٥ ــ عبد الستار الحلوجي: مدخل لدراسة المراجع، ص٨٣.

٦٦ ــ عبد الوهاب أبو النور: المرجع السابق، ص ١٨.

٦٧ ــ محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص ٤٠، عبد الوهاب أبو النور، المرجع السابق، ص ١٨.

٦٨ ــ عبد الجبار عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ص٣١ ــ ٣٢، عبد الوهاب أبو النور: المرجع السابق، ص ١٨، محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص ٣٩.

٦٩ ــ أنظر، عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص ٨٤، عبد الجبار عبدالرحمن: المرجع السابق، ص ٧٠، محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص ص ٤٧ ــ ٤٨.

٧٠ ــ عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص ص ٨٥ ــ ٨٦، عبد الجبار عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ٧٠.

٧١ ــ عبد الستار الحلوجي: المرجع السابق، ص ص٨٩ ــ ٩٠، محمود فهمي حجازي : كارل بروكلمان بين التراث العربي وعلم اللغة المقارن، مجلة الكتاب العربي، ع٤٥، ١٩٦٩، ص١٥، عبد الجبار عبد الرحمن: المرجع السابق، ص ص ٣٢ ــ ٣٣.

٧٢ ــ نفس المرجع، ص ٣٤،عبد الستار الحلوجي، المرجع السابق، ص ٩٢.

وقد صدر الجزء الأول من الترجمة العربية لهذا الكتاب سنة ١٩٧١ وترجمه د. فهمي أبو الفضل ومراجعة د. محمود فهمي حجازي، وهذا الجزء ليس ترجمة كاملة للمجلد الأول الألماني وإنما هو ترجمة لأقل من نصفه. لذلك أعاد د. محمود فهمي حجازي ود. فهمي أبوالفضل ترجمة هذا الجزء كاملاً وصدر عام ١٩٧٧ ويشمل علوم القرآن وعلم الحديث والتدوين التاريخي حتى سنة ٤٣٠ هـ، كما صدرت ترجمتهما العربية للمجلد الثاني عام ١٩٧٨ ويشمل الفقه والعقائد والتصوف حتى سنة ٤٣٠هـ. أما الجزء الثالث ويختص بالشعر فلا يزال تحت الطبع.

٧٣ ــ حسن الحلوة: المرجع السابق، ص ٢٠٥.

التتمة في النحو

عبد الهادي الفضلي
أستاذ في قسم اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الانسانية

الجرجاني، عبد القاهر/ التتمة في النحو. تحقيق طارق نجم عبدالله ـ مكة المكرمة: المكتبة الفيصلية.

يعد كتاب التتمة لعبد القاهر الجرجاني من المتون النحوية التي كانت تؤلف لتوفير المقرر الدراسي الميسّر مادة وعرضاً لطلبة العلوم العربية والاسلامية.

وسبق أن طبع الكتاب ضمن احدى المجاميع النحوية التي اعتاد القدامى من الناشرين تجهيزها للطلاب المشار إليهم.

وفي هذه الأيام أعادت المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة نشره بتحقيق وتعليق الدكتور طارق نجم عبد الله.

واعتمد المحقق في إعداد الكتاب على مخطوطتين ـ كما يذكر ـ هما :

١ ـ مخطوطة المتحف البريطاني، وعدد أوراقها ست ورقات.

٢ ـ مخطوطة المكتب الهندي بلندن، وعدد أوراقها ثلاث ورقات.

ولأني وجدت وأنا أقرأ هذا الكتاب الجليل ما قد يعد من الملاحظات التي تؤخذ على الكتاب منهجاً ومادة، رأيت من المفيد أن أقوم بنشرها ليتكامل بها عمل المحقق الفاضل في خدمة الكتاب، وليفيد منها القارىء الكريم.

كما رأيت أن أقسمها على قسمين : **الملاحظات العامة** والاغلاط النحوية.

أولاً : الملاحظات العامة :

١ ـ إن تسمية النقول المطولة التي ذكرها المحقق في هامش الكتاب (تعليقا) لا نستطيع منهجياً أن نقره على هذه التسمية، كما أننا لا نقوى أن نطلق عليها عنوان (الشرح)، وذلك لأن التعليق توضيح ما يحتاج من كلام المؤلف إلى توضيح مع الاختصار بالقدر الذي تتأدى معه الوظيفة .. أما الشرح، وإن كان أوسع من التعليق كالنقول الموجودة في هامش هذا الكتاب إلّا أنه لابد فيه من ارتباطه بمادة الكتاب المشروحة ارتباطاً عضوياً بحيث يأتي وكأنه امتداد لمادة الكتاب. وهذا لم يتحقق في النقول التي ذكرها المحقق.

فكلا هذين المعنيين لا يصدق على ما ذكره المحقق مما سماه تعليقاً، لأن إضافة حديث عن أقسام الكلام أو الكلمة ـ مثلاً ـ في هامش الكتاب موازياً لحديث المؤلف عن أقسام الكلام أو الكلمة دون أن يكون بينهما

أية صلة سوى الاتفاق في عنوان الموضوع أو اسمه لا نقوى على عده تعليقاً أو شرحاً.

وكل ما يمكن أن يقال عن مثل هذا العمل أنه صنع لغرض تضخيم حجم الكتاب، وربما كان هذا ليزداد سعره النقدي فيفاد منه تجارياً.

٢ ــ ص ١٠ س ٤ : «وخرج الفيروزآبادي أيضاً عن اجماع العلماء الذين ترجموا لعبد القاهر واتفاقهم على اسمه».

إن اطلاق كلمة (اجماع) يُفهم أن الباحث وقف على جميع ما كُتِبَ عن عبد القاهر، ومن المتيقن أن مثل هذا لم يتحقق من الباحث الفاضل لأن في ما كتب عنه المطبوع النادر الذي يصعب الحصول عليه، والمخطوط البعيد التناول، والمفقود الذي لم يعلم ما فيه.

فالذي يقتضيه المنهج أن يقال : وتفرد الفيروزآبادي من بين الذين ترجموا لعبد القاهر ممن وقفت على ما كتبوه...

٣ ــ ص ١٥ س ٨ : «وفي رواية ضعيفة».

إن منهج البحث يتطلب من الباحث في مثل هذا أن يذكر سبب الضعف ليتبين القارىء المتخصص مدى صحة استدلال الباحث.

مضافاً إلى أن أخذ القول بضعف الرواية من باب ارسال المسلمات يجعل استدلال الباحث غير كامل أو لا متكامل.

٤ ــ ص ١٦ س ١ : «كل الذين ترجموا لحياة عبد القاهر اجمعوا على ...».

إن منهج البحث ــ كما قُلت ــ يقتضي الباحث ألا يتسرع في اطلاق (الاجماع) من خلال مراجعته لبعض المصادر.

فالصواب أن يقال: كل الذين ترجموا لحياة عبد القاهر ــ ممن رجعت إلى ما كتبوه عنه ــ أجمعوا على ...

٥ ــ ص ١٨ س ٨ : «وعناصر الشك في صحة هاتين الروايتين ... الخ».

من الواضحات أن هناك فرقاً بين عناصر الشك وهي مقوماته التي تتكون منها حقيقته، وأسبابه وهي العوامل الخارجة عن حقيقته والمؤدية إلى حدوثه.

وما ذكره الباحث هنا هي من أسباب الشك لا من عناصره، فكان عليه أن يقول :(أسباب الشك).

٦ ــ ص ٢٦ س ٥ : «وكان ــ رحمه الله ــ ضيق الطعن لا يستوفي الكلام على ما يذكره مع قدرته على ذلك».

إن عبارة (ضيق الطعن) إن لم تكن قد حُرِّفَتْ عن أصلها الذي أرجحه وهو (ضيق الصدر) فهي محرفة عن عبارة (ضيق العَطَن) ــ بتقديم العين المهملة على الطاء المهملة ــ، وهي تعني (البخيل) قال زهير بن أبي سلمى:

وحسبه نفسه في كل منزلة يكرهها الجبناء الضاقة العَطَنْ

والنص وإن كان من منقول الباحث لا من تعبيره فإن منهج البحث يقتضيه هنا التصويب أو التكذيبة.

٧ ــ ص ٤٦ س ٦ : وأيضا ينقل الباحث هنا نصاً هو : «عرضتم عليّ ــ أيدكم الله ــ رغبتكم في كتاب الابضاح وتحققه».

وصوابه : (وتحقيقه) أي تحرير ألفاظه وضبطها، فكان اللازم على الباحث ــ منهجياً ــ أن يقوم بالتصويب أو

التكذيبة.

٨ ــ ص ٤٦ س ١١ : وهنا نص آخر منقول هو :« لأن جميع ما يدخل في جملة الانسان يألف للفناء والزوال».

وصوابه : (يأنف للفناء) ــ بالنون لا اللام ــ أي يسبق للفناء، والتعدية باللام الجارة تؤكد ذلك لأن الفعل (يألف) يتعدى بنفسه، فلا بد من التصويب هنا أو التكذيبة.

٩ ــ ص ٤٦ س ١٢ : ومن النص نفسه : «فرأيم الرأي أن أسلي عليكم كتاباً».

والصواب (أملي) من الإملاء، وهو واضح. فكان على الباحث أن يصوبه أو يكذبه.

١٠ ــص ٥٠ س ١ : «أوردت الكتب التي ترجمت لعبد القاهر أشعاراً منسوبة إليه».

إن عبارة (منسوبة إليه) أصبحت تعني في عرف المحققين وجامعي الاشعار: الشعر المشكوك النسبة، فكان على الباحث أن يراعي هذا العرف أو الاصطلاح فلا يطلقه على جميع ما ذكر لعبد القاهر من شعر، وإنما على ما شك في نسبته إليه فقط.

١١ ــ ص ٥١ س ٨ :

ليس من خيم كريم ـــ ـــ سم الخيم والمحض اللباب

الصواب أن يكتب البيت هكذا :

ليس من خيم كريم الـ ـــ ـــ خيم والمحض اللباب

وهو من مجزوء الرمل.

١٢ ــ ص ٥٢ س ٣ :

يجيء في فضلة وقت له ـــ ـــ يجيء من شاب الهوى بالنزوع

الصحيح : في فضلة، بلا تنوين لأنه مضاف إلى (وقت)، ولأن الوزن يختل بتنوينه.

١٣ ــ ص ٥٣ س ٨ :

تسر بالحول إذ ما انقضى ـــ ـــ وفي نقيضة تقضينا

والصواب : (إذا) و(تقضيّه) وتشديد (تقضّينا).

١٤ ــ ص ٥٥ س ١٣ : (الأنباه).

صوابه : الإنباه ــ بكسر الهمزة لا فتحها ــ وهو مصدر الفعل (أنبه). ويعني تنبيه الرواة على أنباه النحاة أي النابهين من النحاة.

١٥ ــ ص ٧٠ س ٩ هامش : «إلى حمامتنا ونصفه فقد».

الصواب : أو نصفه.

١٦ ــ ص ٧٨ س ٣ : «ولم يحفظه سيبويه في (عدا) ومن شواهده الخ».

الصواب : (ولم يحفظه سيبويه إلّا في عدا).

١٧ ــ ص ٨٣ س ٢ : «إعلم أن كل اسم فيه سببان من أسباب تسعة أو واحدة تقوم مقامها».

الصواب : مقامهما ــ بالتثنية.

١٨ ــ ص ٨٧ س ٣ : « و (ذو) يثنى ويجمع فيقال: ذو مال وذا مال وذي مال وذو مال وذوي مال».

الصواب : وذوا مال وذوي مال.

١٩ ــ ص ٨٩ س ٦ هامش : «فاياك اياك المراد فانه».

الصواب : المراء ــ بالهمزة لا الدال.

٢٠ ــ ص ١٠١ س ١٤ هامش : «وقيل إن معنى (هن) الكناية عما يعرف اسمه».

الصواب : عما لا يعرف اسمه.

ثانياً : الاغلاط النحوية :

١ ــ ص ٥ س ١٢ قال : «كي يتعرف الباحثون والدارسون على تراثه»..

والصواب أن يقال : «كي يتعرف الباحثون والدارسون تراثه» لأن الفعل (تعرف) يتعدى بنفسه، ولم أعثر في حدود مراجعاتي على تعديته بحرف الجر إلّا عند قبيل من الكتاب المعاصرين، ومن المظنون قوياً أنه من لغة الصحافة.

جاء في لسان العرب ــ مادة عرف : (ويتعرف الأميرُ منه أحوالَهم).

٢ ــ ص ٥ س ١٦ : «وعرّفت بشيوخه وتلاميذه».

والصواب : «عرّفت شيوخه وتلاميذه»، قال ابن منظور في اللسان ــ مادة عرف : (وعرّفه الأمر: أعلمه إياه، وعرّفه بيته: أعلمه بمكانه، وعرّفه به : وسمه، قال سيبويه: عرّفته زيداً، فذهب إلى تعدية (عرّفت) بالتثقيل إلى مفعولين، يعني أنك تقول: (عَرَفْتُ زيداً) فيتعدى إلى واحد، ثم تثقل العين فيتعدى إلى مفعولين، قال: وأما (عرّفته بزيد) فانما تريد عرفته بهذه العلامة وأوضحته بها، فهو سوى المعنى الأول، وإنما (عرفته بزيد) كقولك: (سميته بزيد).

وجاء مثله في ص ٦ س ٢ وهو قوله (عرّفت بكتاب التتمة).

٣ ــ ص ٩ س ١١ : «أما الزركلي وكحالة فقد أضافا جده «محمد» ــ ».

والأصوب ــ إن لم يكن الصواب لأنه لا وجه للحكاية هنا ــ أن يقال : (محمداً) بالنصب.

٤ ــ ص ١٣ س ٣ : «ولو استبعدنا هذه الرواية ودرسنا الرواية الأخرى لصاحب الروضات أو رواية ياقوت فنجد...».

والصواب أن يقال : (وجدنا) أو (لوجدنا) ، قال ابن هشام في المغني ــ موضوع لو: «جواب لو إما مضارع منفي بلم نحو (لو لم يخف الله لم يعصه) أو ماض مثبت أو منفي بما، والغالب على المثبت دخول اللام عليه نحو: (لو نشاء لجعلناه حطاماً) ومن تجرده منها: (لو نشاء جعلناه اجاجاً)، والغالب على المنفي تجرده منها نحو: (ولو شاء ربك ما فعلوه)، ومن اقترانه بها قوله:

ولو نُعطَى الخيارَ لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الليالي

ونظيره في الشذوذ اقتران جواب القسم المنفى بما بها كقوله:

أما والذي لو شاء لم يخلق النوى
لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي

وقد ورد جواب (لو الماضي مقرونا بـ (قد)، وهو غريب، كقول جرير:

لو شئت قد نقع الفؤاد بشربة
تدع الحوائم لا يجدن غليلا

ونظيره في الشذوذ اقتران جواب (لولا) بها كقول جرير أيضاً:

.. .. لولا رجاؤك قد قتلت أولادي

قيل: وقد يكون جواب (لو) جملة اسمية مقرونة باللام أو بالفاء كقوله تعالى: (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير)، وقيل: هو جواب لقسم مقدر وقول الشاعر:

قالت سلامةُ: لم يكن لك عادة
أن تترك الأعداء حتى تعذرا
لو كان قتل يا سلام فراحة
لكن فررت مخافةً أن أوسرا»

وتكرر الخطأ نفسه في الصفحة نفسها في السطر السابع، وكذلك في السطر الأول من الصفحة الخامسة عشرة.

٥ ــ ص ١٩ س ٩ : «سيما وأن هؤلاء».

والصواب: (سيما أن هؤلاء)، بحذف الواو المقحمة غلطاً بين (ما) والاسم الواقع بعدها، صريحاً كان أو مؤولاً كما هنا.

وأصوب منه: (لا سيما أن هؤلاء)، باستعمال (لا) قبل (سيما).

والأصوب: (ولا سيما أن هؤلاء)، باستعمال (الواو) قبل (لا).

إن اقحام (الواو) بين (ما) و(الاسم) الذي بعدها تركيب عامي، ليس بينه وبين الفصيح صلة اطلاقاً، ولا أدل على ذلك من ذهاب النحويين إلى تجويز جر الاسم الواقع بعد (ولا سيما) باضافة (سي) إليه، على اعتبار أن (ما) زائدة غير كافة. ولمزيد من المعرفة والتفاصيل يرجع إلى أمثال (مغني ابن هشام) للوقوف على خصائص وشؤون هذا الأسلوب.

وتكرر هذا الغلط في ص ٣٠ س ٥.

٦ ــ ص ٤٠ س ١٩ : «الاعتقاد السائد إلى الوقت الحاضر أن لعبد القاهر الجرجاني كتاب (؟) يسمى العوامل».

وصوابه: (كتاباً) بالنصب لأنه اسم (أن).

وتكرر الخطأ نفسه في ص ٤٣ س ٧.

٧ ــ ص ٥٦ س ١٧ : «وانتقل بحديثه إلى المعارف وذكر خمسة منها».

والصواب أن يقال: (خمساً) بالتذكير لأن المعدود مؤنث.

٨ ــ ص ٦٤ س ١٣ : «الماضي المبدوء بتاء يبنى بضم أوله وثانيه».

الصحيح أن تقيد (التاء) هنا بـ (الزائدة) فيقال: (المبدوء بتاء زائدة)، لأن الماضي المبدوء بتاء أصلية لا يضم منه إلا أوله، مثل (تَرِبَ) و(تبع) و(تلف) و(ترك).

٩ ــ ص ٦٦ س ٢١ : «أن لا يتقدم معمول خبرها على اسمها إلا إن كان ظرفاً أو مجروراً، مثل: ما طعامَكَ زيدٌ آكلٌ».

وكما ترى أن المعمول هنا وهو (طعام) ليس ظرفاً ولا مجروراً.

والصحيح أن يقال ــ مثلاً ــ نحو (ما عندك زيدٌ مقيماً) و(ما بي أنت معنياً) وهو مثال ابن مالك في ألفيته، قال:

إعمال (ليس) أعملت (ما) دون (إن)
مع بقا النفي وترتيب زكن
وسبق حرف جر أو ظرف كما
بي أنت معنياً أجاز العلما

١٠ ــص ٧٢ س ١٠ و١١، ذكر المحقق في تعليقه هنا أن (بعد) و(قبل)وأخواتهمامن الظروف المبنية، والذي ينبغي منهجياً أن تحدد حالة البناء، لأن هذه المواد لا تبنى دائماً، وإنما في حالة واحدة، وهي إذا حذف المضاف إليه ونوي معناه دون لفظه.

والمسألة من الواضحات التي لا تحتاج إلى تدليل أو تحويل إلى مصدر للاستزادة منه.

١١ ــص ٧٤ س ٦و٧: «إن كان مثنى أو جمع مذكر سالم، وإن كان جمع مذكر سالم».

الصواب : (سالماً) بالنصب في الموضعين، لأنه نعت لكلمة (جمع) وهي منصوبة خبراً لكان، لا نعت لكلمة (مذكر) المجرورة بالاضافة.

وبالرجوع إلى تقسيم النحاة الجمع إلى مكسر وسالم يظهر وجه الصحة والسقم.

تكرر هذا الغلط في ص ٩٩ س ١٥.

١٢ ــص ٩١ س ١١ : «مثل : سحر إذا أردت به اليوم بعينه».

والصواب : (ليوم) لأن (سحر) لا يطلق على اليوم حتى يراد به، وإنما المقصود أن يكون (سحر) هنا مرادا به سحر يوم معين.

وهذا الخطأ المذكور وقع به محقق شرح الجمل المنقول عنه النص، ومنهج التحقيق يتطلب في مثله التصويب أو التكذبية.

١٣ ــص ١٠٠، مما أغفله المحقق هنا في تعليقه لتعداد ملحقات جمع المذكر السالم: (وابلون) و(مرقون)، قال ابن الناظم في (اعراب جمع المذكر السالم): «اهلون مما سلم فيه بناء واحده فانه جمع أهل، وهو لا علم ولا صفة فتصحيحه شاذ، كما شذ تصحيح الوابل في قول الهذلي:

تلاعب الريح بالعصرين قسطله | والوابلون وتهتان التجاويد

فانه لما لا يعقل فحقه أن لا يصحح، ولكنه ورد فوجب قبوله، وكما شذ تصحيح مرقة في قول بعضهم: أطعمنا مرقة من مرقين، أي أمراقاً من لحوم شتى».

١٤ ــص ١٠١ س ١٨ : «وقصر الفراء الاعراب بالحروف على خمسة من هذه الأسماء واستثنى هن».

وصوابه (هناً) بالتنوين إذ لا حكاية هنا وليس فيه ما يمنع من الصرف.

١٥ ــص ١١١ س ١٧ : « (أو) إذا وقعت موقع (إلى أن) أو (إلّا أن) كقول الشاعر:

لاستسهلن الصعب أو ادرك المنى | فما انقادت الآمال إلّا لصابر

أي إلّا أن ادرك».

الصواب: (إلى أن).

أما الشاهد لمجيء (أو) بمعنى (إلّا) فهو قول الآخر:

وكنت إذا غمزت قناة قوم | كسرت كعوبها أو تستقيما

أي (إلّا أن تستقيم).

والمسألة من الواضحات، ومع هذا ينظر شروح الألفية وشواهدها في موضوع (اعراب الفعل).

١٦ ــص ١١٣ : «الفهارس» هكذا، والموجود فهرسان.

وبعد، فما هي إلّا مشاركة متواضعة في هذا العمل الثقافي الجاد، بغية أن يفيد منها قارىء الكتاب.

وأرجو أن أكون قد أصبت فيها ليتكامل بها عمل الأخ المحقق، وإن أخطأت فهو رد عليّ وراجع إليّ، والله تعالى ولي التوفيق وهو الغاية.

فتـــوح البلـــدان للبـــلاذري
تحقيق صلاح الدين المنجد

سيد رضوان علي
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية العلوم الاجتماعية
ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تراثنا الاسلامي زاخر بكتب الفتوح، فقد ألف مؤلفونا القدامى أمثال الواقدي، وابن عبد الحكم، وابن القوطية، وابن الأعثم الكوفي في فتوح الشام ومصر وأفريقيا والأندلس أو الفتوح عامة في مختلف الأقطار، ومن هؤلاء أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩هـ، وكتب هؤلاء مطبوعة متداولة.

وأما مؤلف الفتوح الغزير التأليف، أبو الحسن علي المدائني (المتوفى نحو سنة ٢٢٥هـ) الذي ألف عشرات من كتب الفتوح الصغيرة أو الرسائل والذي ألف ٣٦ كتاباً في موضوع الفتوح[1]، بجانب عشرات من الكتب الأخرى[2]، فقد فقدت معظمها، ولا توجد منها إلا مقتطفات أو اقتباسات في مصادر متنوعة عديدة[3]، وهو من مصادر البلاذري الهامة، وبخاصة فيما يتعلق بفتح السند، حيث ضمّ ثلاث رسائل المدائني في الموضوع، وهي (١) كتاب فتح مكران (٢) كتاب ثغر الهند (٣) كتاب عمال الهند، أو بالأحرى نقل منها أهم الروايات، ومن ثم أهمية كتاب فتوح البلدان في موضوع فتح مناطق في السند والهند، أو شبه القارة الهندية.

وكتاب البلاذري هذا نشر لأول مرة على يد المستشرق الهولندي المعروف دي خويه في ثلاثة أقسام بين سنتي ١٨٦٣ و١٨٦٦م، وهي نشرة علمية محققة، ثم طبع في القاهرة عدة مرات، إحداها بتحقيق الأستاذ رضوان محمد رضوان في عام ١٩٣٢، وهو مشحون بالأخطاء، وهي تكرار، كما يرى الدكتور المنجد٢ لطبعة القاهرة ١٩٠١م المبنية على طبعة دي خويه.

وكل ذلك ذكره الدكتور المنجد في مقدمته الضافية عن الكتاب ومؤلفه (ص ص ٣ ــ ٢٩). والذي اتخذ طبعة دي خويه أساسا لنشرته، لأنه كما قال : «اطمأن قلبنا إلى الأصول التي اعتمد عليها دي خويه».فقام بتحقيق ونشر الكتاب بتكليف من إدارة الثقافة العامة بجامعة الدول العربية في سنة ١٩٥٦، وطبع من قبل مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

ويتبين من ذلك أنه تكرار لطبعة دي خويه، ويتساءل المرء ما الداعي إلى ذلك؟ هل أضاف شيئا جديدا، أو شرح أشياء غامضة في الكتاب؟ ونجد جواب ذلك في كلمات الدكتور المنجد نفسه، حيث يقول :

«وقد صححنا نحن أولاً طبعة دي خويه حسب ما استدرك من تصحيح في آخر الكتاب».

ويلاحظ أن هذا ليس تحقيقاً، ولا عملاً علمياً، بل هو مجرد نقل الاستدراكات الموجودة في آخر طبعة دي خويه إلى مواضعها من الكتاب، وأردف بعد ذلك قائلا: «ثم صححنا نحن ما بدا لنا فيها الخطأ أو فاته التنبيه عليه، ولم نشر إلى هذه الأخطاء، فعمل هذا المستشرق الجليل الذي نشر عشرات من

تراثنا العربي قبل قرن أجل من أن يطعن عليه لأخطاء يتعرض لها كل عالم، وخاصة كتاب كفتوح البلدان كله أعلام وأسماء أماكن وبقاع».

وليته قد أشار إلى هذه الأخطاء، وليس في ذلك طعن على المحقق المستشرق أو نيل منه، بل هو خدمة للعلم. والعلماء المحققون المنصفون يقدرون ذلك ويرحبون به بل يطلبونه من قرائهم، بل دي خويه نفسه طلب ذلك عند نشر الكتاب، وقبل تصحيحات نولديكه، وفليشر ووستنفيلد ورايتْ من معاصريه، وأثبت هذه التصحيحات في ثمان وعشرين صفحة في آخر الكتاب، كما يقول الدكتور المنجد نفسه في مقدمته.

ولو أشار هو إلى الأخطاء التي تنبه لها وصححها في هوامش نشرته، لاستفدنا من ذلك، وارتاحت له روح المحقق الأول، وظهرت قيمة عمل الدكتور المنجد، وتأكدنا أنه بالفعل كانت هناك هفوات وثغرات في تحقيق دي خويه، أما إطلاق القول هكذا دون تحديد مواضع الخطأ فهذا يعتبر في اعتقادي، طعنا في عمل المحقق الأول. ولست أدري بأي شيء يمكن تعبير هذا؟ هل هو تستر على أخطاء دي خويه إكراما له؟ أو كسل علمي؟ أو تبرير لإعادة عمل التحقيق؟.

ومهما يكن الأمر فان هذا مجرد دعوى حتى تقام عليها الأدلة من إظهار أخطاء دي خويه، وبخاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن الدكتور المنجد لم يرجع إلى أي مخطوط جديد في تحقيقه.

ثم يشرح المحقق الفاضل عمله في تحقيق الكتاب في نقاط محددة، هي :

١ ـــ «ضبط» كثير من الكلمات التي لم يضبطها دي خويه.

٢ ـــ تصحيح الرسم في الأسماء التي حذفت أَلِفُها كابراهيم واسحق.

٣ ـــ فصل المئات عن الأعداد، فكتبنا ثلاث مئة بدلا من ثلاثمائة.

٤ ـــ ترقيم الأحاديث والأخبار.

٥ ـــ جعل الإسناد بحرف أدق من حرف المتن(٤)».

ولا يخفى على القارىء أن كل ذلك عمل فني بحت، لا شأن له بتحقيق علمي بالمعنى الدقيق للكلمة، وبعض الأمور منها ليست ذا بال أو مختلف فيها مثل رسم كلمتي ابراهيم واسحاق وثلاث مئة بدلا من ثلاثمائة (ويستمر الكتاب في مصر وغيرها بوصل المئات مع الأعداد بخلاف الكتاب والمطابع في الشام ولبنان).

وأخيرا ، فصرح المحقق الفاضل : «ورأينا أن كتابا كهذا لا يتم الانتفاع به إلا إذا عرِّفت الأماكن المذكورة فيها، لذلك لم نشأ أن نجعل تعليقاتنا وشروحنا في أسافل الصفحات، بل ألحقنا بالكتاب معجما لأسماء الأماكن، بيّنا فيه مواضعها اليوم إذا أمكن، وذكرنا المصادر التي تكلمت عليها» (المقدمة ص٢٨).

ولا شك أن هذا الأمر أهم ما في الموضوع، أي موضوع التحقيق، للإفادة من الكتاب. ومن المؤسف أن أقول بأن الدكتور المنجد لم يقم بأي مجهود كبير في هذا الأمر المهم جدا، لأنه لم يقم بتحديد مواضع تلك المدن والأماكن الكثيرة حاليا، ولم يذكر المصادر التي تكلمت عليها، وكل ما هنالك أنه اكتفى بالإشارة إلى صفحة الكتاب (أي فتوح البلاذري) التي ورد فيها اسم هذا المكان أو ذاك، أو ذكر ورودها في معجم البلدان، وأحيانا قليلة ذكر لي سترانج في كتابه بلدان الخلافة الشرقية، أو قاموس الأمكنة الواردة في فتوح البلاذري لعلي بهجت (المطبوع في ١٩٠٣ بمصر). ونتيجة لذلك بقيت عشرات الأماكن من المدن والبلدان والنواحي والأنهار مجهولة التحديد، ويتبين ذلك جليا لكل من يرجع إلى معجم الأماكن في آخر الجزء الثالث، من صفحة ٦٧٩ إلى ص ٧٩٣.

ومن الغريب أن المحقق الفاضل يقول في الصفحة الأولى من هذا المعجم أنه حاول «أن يجعله دليلا للمصادر التي تكلمت على تلك الأماكن لمن شاء التوسع في البحث، ويشير إلى حالتها الحاضرة وفي أي دولة من الدول تقع» وقد رجع في ذلك إلى «مراجع شرقية وغربية، قديمة وحديثة وبلغات مختلفة، وإلى خرائط البلدان خاصة»(٥).

ويؤسفني مرة أخرى أن أقول إن هذه مجرد دعوى عريضة ، فلا يجد المرء في هذا المعجم ذكر أي مصدر غير ياقوت، وأحيانا نادرة لي سترانج، وقاموس الأمكنة ، الآنفة الذكر أو خارطة لايران وللعراق. ولا نرى فيه أية إشارة إلى «مراجع بلغات مختلفة شرقية وغربية» اللهم إلا إذا قصد كتاب لي سترانج المعروف والمترجم إلى العربية.

فلا هو رجع إلى المصادر الجغرافية الكثيرة مثل ابن خرداذبة، والاصطخري، وابن حوقل والمقدسي، والإدريسي وأبي الفداء، وكتاب حدود العالم لمؤلف مجهول، وغيرهم، ولا إلى مؤلفات الايرانيين والهنود المسلمين أمثال ده خدا (مؤلف لغت نامه)، وعبد الوهاب القزويني وعباس إقبال وغيرهم بالفارسية، وكتابات بارثولد ومينوراسكي وبوزورث وغيرهم لتحديد الأماكن في بلاد إيران وما وراء النهر، ولا إلى تحقيقات ايليت Elliot، وداود بوتا، ونبي بخش وغيرهم في تحديد الأماكن بالسند والهند ، ولا إلى أبحاث كوديرا وريبرا وحسين مؤنس في تعريف مدن أفريقية والأندلس، ولا إلى أعمال الدكتور أحمد سوسه الذي حقق كثيراً من بلدان العراق وعمل خارطة تاريخية دقيقة.

ولو فعل ذلك لحلّ كثيراً من مشكلات الكتاب في التعرف على مئات الأماكن ، وليس هذا فقط بل وقع في أخطاء وأوهام في تعريف الأماكن الكثيرة سنبيّن بعضها فيما يأتي، أما تحديد هذه الأماكن حاليا وفي أي دولة تقع فلا يوجد في هذا المعجم إلا قليلا.

وليس ذلك عملا مستحيلا أو عسيرا جدا، ولكنه يحتاج بدون شك إلى معاناة في البحث وبذل مجهود شاق.

وأما الخرائط التي ذكر أنه ألحقها بالكتاب، فلا وجود لها في الطبعة التي أملكها (١٩٥٦) وكذلك في نسخ أخرى من هذه الطبعة.

وهكذا فالكتاب ما زال ينتظر التحقيق فيما يخص تعريف وتحديد مئات الأماكن الواردة فيه.وأما كتاب علي بهجت بعنوان قاموس الأمكنة الواردة في فتوح البلدان للبلاذري السابق الذكر فمليء بالأوهام والأخطاء ولا يفيد القارىء شيئا في التعرف على تلك الأماكن حاليا، وأغلب ظني أن الدكتور المنجد اعتمد عليه اعتمادا كبيرا كما اتضح لي من مقارنة لبعض المواضع.

ومن أمثلة أوهام الدكتور المنجد في تعريف هذه الأماكن أو إهمال تحديدها حاليا ما يأتي :

١ ــ **آمل** (زم) (ص٦٧٩) : قال : «كانت أكبر مدينة بطبرستان، وهي في الاتحاد السوفيتي ، وفي محلها مدينة جهارجوى».

وأقول : آمل المذكورة هنا ليست بطبرستان، بل هي الواقعة في اقليم خوارزم قديما، وهي التي اسمها جهارجوي وهي في جمهورية تركمانستان(٦) بالاتحاد السوفيتي على وجه التحديد، أما آمل الواقعة في طبرستان (مازندران) فهي في شمال ايران، وما زالت تعرف باسمها. (ينظر في خرائط إيران والاتحاد السوفيتي).

٢ ــ **أخسيكث** (ص٦٨١) : عرّفها قائلا: «مدينة في خوقند اليوم (قصبة فرغانة فيما وراء النهر) وهي في الاتحاد السوفياتي، وتعد من أنزه بلاد ما وراء النهر». وأحال للمصادر والمراجع إلى ياقوت ولي سترانج وقاموس

الأمكنة، السابقة الذكر.

وهذا التعريف اختلطت فيه عبارات تلك المراجع بدون انتظام، كما أنه لا يعطي تحديدا دقيقا اليوم، ويبقى الأمر غامضا للقارىء.

والحقيقة أن هذه المدينة كانت في الزمن القديم قصبة أو عاصمة لاقليم فرغانة كما ذكر الاصطخري وابن حوقل وغيرهما، أما في عهد بابر (محمد ظهير الدين) حاكم فرغانة في اوائل القرن العاشر للهجرة، فكان اسمها قد تغيّر إلى آخشي كما صرّح بذلك في مذكراته(٧). وكانت عاصمة الإقليم أو إمارة فرغانة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين مدينة (أندجان).واخشكيت (بالتاء المثناة كما ورد عند بابر)، أو آخشي كانت المدينة الكبرى الثانية، وتغيّر اسمها إلى خوقند في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي عندما نشأت خانية (أي إمارة قوية جديدة).

وهي لا تزال تعرف باسم خوقند، إحدى المدن الكبرى في جمهورية اوزبكستان بالاتحاد السوفيتي، وأما فرغانة فهي احدى المدن الصغيرة الآن في هذه الجمهورية شرقي خوقند.

٣ ــ **أرمائيل** (ص ٦٨٤) : قال :«مدينة كبيرة بين مكران والديبل من أرض السند، كذا ورد اسمها في البلاذري وياقوت، وسماها لي سترانج أرمبيل، وقال إن النساخ يجعلونها أرمائيل».

والحقيقة أن ورد اسمها في ابن حوقل وابن خرداذبة (أرمابيل) ، وكذلك عند البيروني (كتاب الهند)، ولا شك أن ما ورد في البلاذري وياقوت من تحريف النساخ. وهي في اللغة المحلية بمكران كانت تعرف (بأرمَن بيلا) وهي المعروفة الآن بـ (تسْ بيلا) الآن في جنوبي مقاطعة بلوشستان بباكستان.

٤ ــ **أزين** (ص ٦٨٥) : قال : «بلدة في السند». ولم يذكر أي مصدر غير الفتوح نفسه. وأقول: الصواب في ضبطه بضم الهمزة وتشديد الزاي مع فتحها: أُزَّين وهو تعريب لإسم أُجَّين.

وأُجَّين مدينة قديمة تعرف بهذا الاسم حتى الآن، وهي في اقليم مالْوَه بمقاطعة مدهيابرديش بجمهورية الهند. ولا علاقة لها بالسند. ويمكن التعرف عليها في عامة خرائط الهند.

٥ ــ **اسبيجاب** : عرّفها «بلدة كبيرة فيما وراء النهر».

وهذا التعريف لا يفيد شيئا فإن عشرات من المدن التي ذكرها البلاذري تقع فيما وراء النهر وإنها بلاد واسعة.

والحقيقة أنها اسم كورة، وقصبتها أو عاصمتها كانت تعرف بهذا الاسم أيضا، ومدينة اسبيجاب هي موقع قرية سيرام الحالية في جمهورية كازاخستان (أو قازاقستان) بالاتحاد السوفيتي.

ومن مدن كورة أو ناحية اسبيجاب، مدينتا فاراب وطراز الشهيرتان.

٦ ــ **اشروسنة** (٦٨٧) : عرّفها : «بلدة كبيرة بين نهر سيحون وسمرقند». وأقول : هذا كلام ياقوت، وأدق منه ما قاله الإصطخري وابن حوقل، أشروسنة اسم الإقليم، وليس بها مكان ولا مدينة بهذا الاسم. وقصبتها أو عاصمتها بنجيكث التي تقع أطلالها على بعد ستة عشر ميلا من أوراتبة إلى الجنوب الغربي منها.

وهكذا فكان موقع هذه الناحية في جمهورية اوزبكستان الحالية بالاتحاد السوفيتي. ولا وجود لها الآن.

٧ ــ **إصطخر** (ص٦٨٧) : عرّفها صحيحا، ولكن لم يذكر اسمها حاليا، وهي تعرف الآن بـ «تخت جمشيد» وهي اطلال للمدينة القديمة.

٨ ــ **ألاهور (لهاوور)** (ص ٦٩٠) : قال عنها : «مدينة شهيرة بالهند غزاها المهلب بن أبي صفرة وهي اليوم لاهور في الباكستان».

أقول : هذا خطأ، إذ (الاهور) المذكورة في فتوح البلاذري ، غير لهاوور (لاهور) الحالية، وقد وقع في الخطأ بعض الباحثين الآخرين.

وألاهور هذه كانت على شاطىء نهر أتك (Attok) في الشمال من مقاطعة البنجاب، وهي الآن قرية صغيرة بهذا الاسم على هذا النهر في ،مقاطعة الحدود الشمالية بالباكستان، ولم تكن لاهور الحالية بالباكستان معروفة آنذاك بهذا الاسم، بل عرفت باسم لهاور في القرن الرابع الهجري، وورد ذكرها عند البيروني بهذا الاسم في كتابيه القانون المسعودي وكتاب الهند.

٩ ــ **بغرور** (ص ٦٥٩) : قال «من بلاد السند، تذكر هي والرور» لم يذكر أي مصدر أو مرجع غير (الفتوح).

وأقول : إنها كانت على شاطىء نهر السند، وتعرف الآن بـ «بهكّر» في مقاطعة السند بالباكستان.

١٠ ــ **بنّة** (ص ٦٩٦) : قال : «مدينة بالهند بين الملتان وكابل».

وهذا تعريف غريب، فالملتان في الباكستان، وكابل في افغانستان، وأما الهند فهي شرقي الباكستان، فكيف تكون بينهما؟ والحقيقة هي مدينة (بنون) الحالية في مقاطعة الحدود بالباكستان، وهي بالفعل بين الملتان وكابل، وهي التي غزاها المهلب بن أبي صفرة في خلافة عبد الملك بن مروان من ناحية سجستان (أو افغانستان).

١١ ــ **بوقان** (ص ٦٩٧) : قال : «بلدة من نواحي سجستان» (٨).

الصواب ، أنها من مدن مقاطعة بلوشستان[١٨] بالباكستان، وذكرها ابن خرداذبة من مدن بلاد السند (ص ٥٦)، ولا توجد الآن في خرائط باكستان مدينة بهذا الاسم، ولعلها كانت بجانب الممّر الجبلي في شمالي مقاطعة بلوشستان الذي يعرف بممّر (بُولان) بالقرب من حدود افغانستان الجنوبية (أوسجستان) وسياق العبارة يدل على ذلك، إذ غزا العرب معها القيقان (وهي كيزكانان) وهي أيضا كانت في تلك المقاطعة.

١٢ ــ **سياس** (ص ٦٩٧) : **عرّفها قائلا** : «مدينة بالسند». ولم يُحل إلى أي مصدر غير الفتوح..

لم تعرف مدينة بالسند بهذا الاسم، والصواب أنه اسم نهر صغير من الأنهار الخمسة في مقاطعة البنجاب بالباكستان. والمحقق نفسه ذكر ذلك مرة ثانية في (ص ٦٩٨) نقلا عن ياقوت، ولكن ما ذكره هنا أنه نهر في السند يفضي إلى الملتان، فخطأ، فان هذا النهر يرفد نهر ستلج، وهذا النهر الأخير هو الذي يفضي إلى الملتان كما يظهر جليًا لكل من نظر خريطة الباكستان.

١٣ ــ **البيرون** (ص ٦٩٨) : قال في تعريفها: «بلدة في السند، ينسب إليها أبو الريحان البيروني».

وهذا خطأ فاحش، بل خطآن، فالصواب في اسمها

(النيرون) بالنون، وما ورد في (الفتوح) من أخطاء النساخ، كما يتأكد من اسمها في ابن حوقل والبيروني (كتاب الهند) وغير ذلك من المصادر الموثوقة. وأما البيروني فينسب إلى بيرون في خوارزم، ومن ثم يعرف أيضا بالبيروني الخوارزمي، أو الخوارزمي فقط كما يذكره دائما القزويني في كتابه (آثار البلاد).

وفي موضع نيرون (أو نيرون كوت) تقوم حاليا مدينة حيدراباد بمقاطعة السند في الباكستان.

١٤ ــ **البيضاء** : لم يرد عند المحقق في تعريفها غير «البيضاء بالبوقان» ومصدره الفتوح فقط.

أقول قد مرّ الكلام على (البوقان) والتي كان قد غزاها العرب قبل حملة محمد بن القاسم المظفرة على السند، وأما البيضاء فيذكر البلاذري أن عمران بن موسى بن يحيى البرمكي بناها في خلافة المعتصم، في موضع البوقان أو بجانبها، ولم يذكرها ياقوت مع أنه ذكر ثلاثة عشر موضعا يحمل اسم البيضاء في غير بلاد السند، وكذلك لم يذكرها ابن خرداذبة ولا ابن حوقل وغيرهما من الجغرافيين، فلعلها بعد استقلال بلاد السند ومكران في أواخر القرن الثالث الهجري وقيام إمارات مستقلة فيها قد هُجرت وخربت.

ومهما يكن الأمر فانها لا شك كانت في شمالي مقاطعة بلوشستان ولعلها كانت في الموضع الذي يعرف الآن بـ (قلعة سفيد) أي الحصن الأبيض.

١٥ ــ **البيلمان** (ص ٦٩٩) : قال : «مدينة في السند»، ولم يذكر مصدرا غير الفتوح.

وهو خطأ واضح، فان البلاذري يذكرها في سياق الغزوات العربية لمدن الهند. فاذا لم يتمكن من تحديدها، فلا أقل من أن يقول إنها في الهند.

وورد ذكرها في ياقوت، ولكنه لم يكن متأكدا من تعريفه إياها، وعلى كل حال ما ورد فيه خطأ.

والصواب في اسمه أنه تعريب لاسم (بهْيلمالَ) وهي مدينة هندية قديمة في مقاطعة راجستان الحالية، والخرائط التاريخية القديمة تذكرها، وتقوم في موضعها أو بجوارها مدينة جودهبور حالياً.

١٦ ــ **ستانه** (ص ٦٩٩) : لم يعرّفها المحقق بتة.

وذكرها الإدريسي، وأبو الفداء، والبيروني في كتابي الهند والقانون المسعودي، وكانت ميناء هاما على الساحل الغربي للهند، وهي الآن قرية ساحلية بجوار بومباي في الهند وإليها ينتسب محمد أعلى التهانوي صاحب كشاف اصطلاحات الفنون.

١٧ ــ **بيق** (ص ٦٩٩) : قال : «بلدة كبيرة من نواحي نيسابور بإيران». (ص ٦٩٩)

وأقول إنها كانت في ايران قديما، ولكنها حاليا في جمهورية تركانستان بالاتحاد السوفيتي.

١٨ ــ **تستر** (ص ٧٠٠) : قال : «كانت أعظم مدينة بخوزستان».

أقول : اسمها الآن شُوسْتر، وهي لا تزال معروفة في اقليم خوزستان.

١٩ ــ **الترمذ** (ص ٧٠٠) : حدد موضعها على نهر بلخ من الجانب الغربي، وهذا صحيح ولكنه لم يذكر في أية دولة تقع هذه المدينة الاسلامية الشهيرة.

والحقيقة أنها مدينة صغيرة جدا، تقع في جمهورية اوزبكستان بالاتحاد السوفيتي على نهر جيحون (بلخ أيضا)

أو آموديا، ولم يبق من ترمذ القديمة سوى أطلال(٩).

٢٠ ــ**توشكت** (ص ٧٠١) : ذكرها أيضا في حرف (الباء) «بوشكث أوبومجث»، ورسمها في متن الفتوح (ص ٥١٧)(١٠) «تومشكث».

وتركها المحقق بدون تعريف كغيرها من الأسماء الكثيرة. ومن المحقق ان الرسم الوارد للكلمة في الفتوح (أي تومَشْكث)، وكذلك الرسمين الواردين عند المحقق ليسا كما ورد في المصادر، بل هو في ابن خرداذبة. «بمجكث» (ص٢٥) وكذلك في ياقوت، ورسمها عند الاصطخري وابن حوقل «بومُجْكث». وعلى هذا فيحتمل أن يكون اسمها الصحيح في الفتوح هذا.

وهي كما قال ابن خرداذبة، وهو أقدم المصادر الجغرافية ومعاصر للبلاذري: إحدى مدن اقليم بخارى العديدة، وأما الاصطخري وتبعا له ابن حوقل فقد ذكرا أنه اسم قديم لبخارا: كما ذكرا أيضا أنها إحدى مدن بخارا، وقد لاحظ ياقوت هذا الاضطراب في قول الاصطخري.

وعلى هذا فكانت هذه المدينة بجوار بخارى الكائنة الآن في جمهورية أوزبكستان بالاتحاد السوفيتي.

٢١ ــ**الجرز** (ص ٧٠٦) : قال« في السند، فتحها الجنيد بن عبد الرحمن المرّى». هكذا ورد اسمها في معجم الأماكن للمحقق بتقديم الراء المهملة، وتأخير الزاي المعجمة والصواب في اسمها الجُزر (بتقديم الزاء المعجمة وتأخير الراء المهملة) كما ورد في متن الفتوح وعند الادريسي ولم يذكر الدكتور المنجد في تعريفها غير الفتوح نفسه.

والحقيقة أنه لم يرد اسمها عند الجغرافيين العرب غير الإدريسي، وكذلك عند المسعودي وهي التي يرد ذكرها في بعض الرحلات العربية وكتب الملاحة باسم الجُزرات أو الجوذرات (أي كجرات).

ومن أخطاء المحقق الفاحشة القول بأنها في السند، بل إنها في الهند، كما يدل ذلك سياق العبارة في الفتوح، وتحديدها أنها على الساحل الغربي للهند، وهو اسم اقليم وليست مدينة.(١١)

٢٢ ــ **حجر** (ص ٧١١) : قال «مدينة باليمامة».

أقول : إنها كانت حاضرة اليمامة قديما، وتقوم مقامها مدينة الرياض الحالية، عاصمة المملكة العربية السعودية.

٢٣ ــ **حوىً كهز** (ص ٧١٦) : لم يعرّفها الدكتور المنجد. وكذا ورد الاسم في المتن (ص ٥٣٢)، وهو من أخطاء النساخ، والصواب فيه (حوىً كهك). ومعنى (الحَوّى) الحوض الصغير وكهك اسم بلدة في سجستان كما في ابن حوقل وياقوت، والمقصود هنا نهر صغير بهذا الاسم الواقع بجوار بلدة كهك.

٢٤ ــ **الرور** (ص ٧٢٧) : قال : «ناحية بالسند».

الصواب إنها كانت عاصمة مملكة السند في عهد الفتوح الاسلامية الثانية في خلافة الوليد بن عبد الملك. والصواب في رسمها (أَرُوْر)، وتقوم الآن في موقعها مدينة (رُوْهُرى) بمقاطعة السند في الباكستان (ينظر إلى الخرائط وكتاب فتحنامه سِنْدْهْ أو جج نامه تحقيق الدكتور نبي بخش، بالفارسية أو الترجمة الاردية للكتاب).

٢٥ ــ **سجستان** (ص ٧٣٢) : قال : «ناحية كبيرة جنوبي هراة».

هي الآن جزء منها جنوبي دولة افغانستان ، وقسم منها في

الجنوب الشرقي لايران.

٢٦ ــ **سَرْخس** (ص ٧٣٢) : اعتبرها في ايران.

والصواب أنها في جمهورية تركمانستان بالاتحاد السوفيتي حاليا.

٢٧ ــ **سندان** (ص ٧٣٦) : اعتبرها «في بلاد السند»، دون أي تعريف آخر، ودون ذكر أي مصدر.

أقول ، هذا من أخطاء المحقق الفاحشة، فسياق العبارة في الفتوح يدل على أنها في الهند، والحقيقة أنه اسم ميناء على الساحل الغربي للهند، ذكرها معظم الجغرافيين العرب كابن خرداذبة، وياقوت، وأبي الفداء وغيرهم وهي تعرف الآن باسم (سنجان) في ولاية كجرات بالهند.

٢٨ ــ **سهبان** (ص ٧٣٦) : عرّفها قائلا : «من بلاد السند».

وهذا واضح من نصّ البلاذري، والحقيقة هي المدينة المعروفة الآن باسم (سيهون) قرب مدينة حيدرآباد الكبيرة في مقاطعة السند بالباكستان، وورد اسمها في بعض المصادر الجغرافية العربية (سهبان)، (ينظر في الخرائط).

٢٩ ــ **شهرزور** (ص ٧٤١) : قال عنها : «.... وهي في العراق اليوم».

أقول : واسمها السليمانية.

٣٠ ــ **فرغانة** (ص ٧٥٦) : قال : «كورة ومدينة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان».

هذا التعريف لا يفيد شيئا في أيامنا، بل كان المفروض أن يعرفها ويحدد موقعها حاليا كما فعل بالنسبة لمدينتي سمرقند والشاش.

الحقيقة أن فرغانة الآنَ مدينة صغيرة في جمهورية قرغيزيا بالاتحاد السوفيتي، وتحتفظ باسمها القديم، أما العاصمة فقد انتقلت الآن إلى مدينة (فرونزي).

٣٠ ــ **القندهار** (ص ٧٦٨) : تعريفها عنده «من السند» فقط.

أقول : وهذا من أخطاء المحقق الفاحشة الغريبة، فالمعروف أنها مدينة مشهورة في افغانستان الآن، وكانت قديما من مدن سجستان، هذا بالنسبة للقندهار الوارد في متن الفتوح بصفحة ٥٣٢، وأما الوارد في ص ٥٤٤ فهي قندهار أخرى على الساحل الغربي للهند.[١٢]

٣١ ــ **قنابيل** ٣٢ ــ **قنزبور** ٣٣ ــ **القيقان** : هذه المدن الثلاث الوارد تعريفها في صفحتي ٧٦٨، ٧٦٩، بأنها من بلاد السند خطأ. فالمعروف أن السند يطلق حاليا على مقاطعة من مقاطعات الباكستان، وحتى في القديم كان بعض الجغرافيين مثل الاصطخري وغيره كانوا يفرقون بين السند ومكران وبلاد البلوص، (Bloch).

والحقيقة أن هذه المدن الثلاث كانت تقع فيما يسمى قديما بمكران، وحاليا هي مقاطعة بلوشستان.

وقنزبور، التي ورد اسمها في بعض المصادر العربية فنزبور (بالفاء) هي تعريب اسم (بنجبور Panjpur) وهي تعرف حاليا باسم بنجكور (Panjqore) في جنوب مقاطعة بلوشستان بالباكستان.

أما المدينتان الآخريان فلا وجود لهما الآن.

٣٤ ــ **مرو الشاهجان** (**ص ٧٧٨**) : قال عنها: «هذه مرو العظمى، أشهر مدن خراسان».

لا شك أن مرو هذه كانت كبرى مدن خراسان، بل عاصمة هذا الاقليم في العهود الاسلامية، ولكن هذه المدينة الآن في جمهورية تركانستان في الاتحاد السوفيتي، وخراسان نفسها انقسمت بين ثلاث دول، ايران وافغانستان والاتحاد السوفيتي، وتبعا لذلك انضمت مدنها العديدة إلى هذه الدول الثلاث.

٣٥ ــ **نسا** (ص ٧٨٦) : عرّفها : «بلدة بخراسان».

هذا التعريف القديم لا يفيد شيئا الآن، والحقيقة أنها خرائب الآن في جمهورية تركانستان بالاتحاد السوفيتي، ونشأت على بعد خمسة أميال منها مدينة عشق آباد في تلك الجمهورية السوفيتية.

٣٦ ــ **التلاح** (ص ٧٨٦) : لم يعرفها المحقق، والجدير بالذكر أنه ورد في متن الفتوح (ص٥٣٨) البلاح (بالباء الموحدة). وكلاهما خطأ، والصواب فيه (التلاج) كما يتأكد من نص البلاذري نفسه حيث قال «مثل البركة ويسمونه التلاج» ومن يعرف اللغة الهندية أو الأردية يفهم رأسا أن (التلاج) هنا تعريب لكلمة (تلاؤ) أو تلاب الهندية، ومعناها بالفعل بركة الماء، ووردت هكذا في احدى القراءات في كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر(١٣).

هذا ويلاحظ أن التلاج في فتوح البلاذري ليس اسم علم، فلا يصح ذكره في معجم الأماكن.

٣٧ ــ **نسف** (ص ٧٨٦) : قال عنها : «هي مدينة تخشب نفسها فيما وراء النهر».

لا وجود لبلاد ما وراء النهر الآن، فلا يفيد هذا التعريف شيئا، والحقيقة أن موضع نسف الآن في جمهورية اوزبكستان بالاتحاد السوفيتي. والمغول كانوا خربوها في القرن السابع الهجري، ونشأت بالقرب منها مدينة باسم قرشي (أي القصر في اللغة التركية).

٣٨ ــ **الهندمند** (ص ٧٩١) : تعريفها عنده : «نهر مدينة سجستان».

وأقول : لا وجود لهذا الاسم في الخرائط، بل يعرف هذا النهر حاليا باسم نهر (هيلمند) في أفغانستان، وهو أكبر أنهارها.

٣٩ ــ **المُلتان** (ص ٧٨٣) : عرّفها : «مدينة من نواحي الهند قرب غزنة».

وهذا أغرب تعريف ! وأين قربها من غزنة التي تبعد عنها ما لا يقل عن ألفي كيلومتر في افغانستان، ونظرة واحدة في خارطة الباكستان تظهر أنها من كبرى مدنها، وتقع في جنوب مقاطعة البنجاب، وكانت عند فتح السند من ضمن اقليم السند. وهي لا تزال تحتفظ باسمها منذ ألف وخمسمئة سنة.

ويتضح من هذه الملاحظات على بعض المدن أن منها ما لا تزال تحتفظ بأسمائها الإسلامية القديمة كبخاري وسمرقند وفاراب، ومرو، وآمل (بطبرستان أو مازندران حاليا) وغيرها وأخرى تغيرت أسماؤها، وغيرها أطلال دارسة قامت في مواضعها أو بجانبها مدن جديدة، كما أن تبعيتها للدول تبدلت نتيجة لتبدلات خارطات سياسية، فلم تبق هناك بلاد باسم ما وراء النهر. وخراسان توزعت بين ثلاث دول، ايران وافغانستان وجمهوريات الاتحاد السوفيتي في آسيا الوسطى، كما أن خارطة

الشام والعراق تغيرت عما كانت عليه في العصور السابقة، ولم تبق هناك بلاد باسم السند بل أصبح هذا الاسم يطلق على مقاطعة من مقاطعات دولة باكستان، كما أن أفريقية القديمة في العصور الإسلامية أصبحت تعرف بليبيا، وتونس والجزائر.

ومن متطلبات البحث العلمي أن تُحدد مواضع هذه الأماكن من المدن والنواحي والأنهار وغيرها في الدول حسب الخارطات السياسية الحديثة، وقام الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد بالفعل بمثل هذا التحديد لكثير من المدن، ولكنه ترك أماكن كثيرة دون هذا التحديد، بينت بعضها، وإنني شاعر بأن الكثير من الأماكن المذكورة في معجم الأماكن للدكتور المنجد تحتاج إلى تعريف أوضح وتحديد مواضعها في الدول حاليا.

هذا وقد ترك المحقق العلّامة كثيراً من الأماكن دون أي تعريف مثل الزوزان، السراة، سدراته، شهرباج، العال، عراجين، العقبة، عيون الطف، الغمر، فالي، القصرين، مرمد، المعلة، المغينة، المنعرج، مليقيا ، نقابلس، اليسيرة، اليسيد، هاعلة، هجر، الهرك ، نيسابور، همدان، حوى كهز، وغيرها الكثير.

وأخرى ذكرها البلاذري، وأهملها الدكتور المنجد في معجمه، مثل بخارى بهرمد، بروص، دهنج، برهمناباذ، بسمد، وغيرها.

وهكذا فكتاب البلاذري العظيم ما زال في حاجة إلى تحقيق دقيق، ولا يتم ذلك، فيما أرى، إلا بتعاون عدد من الباحثين من مختلف الأقطار الاسلامية، وأهيب بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ومركز البحوث بها على وجه التحديد أن يتولى هذا الأمر، وخاصة أنه في سبيل إعداد موسوعة جغرافية ضخمة عن العالم الاسلامي عبر عصوره المختلفة.

هوامش

(١) أنظر ابن النديم، الفهرست، طبعة فلوجل، ص ١٠٣.
(٢) بلغ عددها حسبما أورده ابن النديم ٢٣٩ كتابا بين الكبير والصغير.
(٣) أنظر عنها فؤاد سيزكين، تاريخ التراث العربي: ٥٠٣/١ وما بعده، وبدري محمد فهد، شيخ الأخباريين المدائني ص ص ١٤١ ــ ١٦١.
(٤) مقدمة فتوح البلدان، ٢٨/١.
(٥) القسم الثالث ، ص ٦٧٨.
(٦) أنظر، د. محمد علي البار، المسلمون في الاتحاد السوفيتي، ٦١٢/٢.
(٧) كتب بابر مؤسس الدولة المغولية الاسلامية في الهند مذكراته باللغة التركية بعنوان تُزك بابري، وترجمت هذه المذكرات قديما إلى الفارسية، ومنها إلى الاردية، كما ترجمت إلى الانجليزية والروسية، أنظر الترجمة الاردية بقلم نصير الدين حيدر ص ٢٢.
(٨) أنظر كتاب آسيا الوسطى في العصر الحديث بقلم ديوندراكوشل، والخرائط الواردة فيها (بالانجليزية).
(٨آ) وكتابته بلوخستان خطأ، إذ أن العرب قديما وحتى الآن كانوا يستبدلون الجيم الفارسية بالشين مثل الشاي، وكراشي.
(٩) د. محمد علي البارّ، المسلمون في الاتحاد السوفيتي ٥٢٣/٢ وما بعده.
(١٠) والإحالة في معجمه لأسماء الأمكنة إلى ص ١٥٧، وهي من الأخطاء المطبعية كما يبدو، والصواب ما ذكرناه.
(١١) وأنظر عنها وعن مدن الهند الأخرى، بحثنا بعنوان: تعريف وتحديد مدن الهند الأخرى الواردة في كتاب فتوح البلدان للبلاذري، مجلة العصور، العدد الأول.
(١٢) أنظر عنها بحثنا السابق الذكر.
(١٣) طبعة جديدة موسعة بتحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي (ص٤١٩)، بغداد، ١٩٨١.

ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز
في القـــرن الرابـــع عشر للهجـــرة
لمحمد علي مغربي

إبراهيم اسحق إبراهيم

مغربي، محمد علي/ ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة.ــ ط٢.ــ جدة: المؤلف، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م، ٢٧٩ ص.

محمد علي مغربي، الذي بدأ نشاطه الثقافي برواية طبعت عام ١٣٦٤هـ وبمقالات جمعت لها طبعتان عام ١٣٨٧هـ، استهوته في مرحلة النضج رؤيتان للتاريخ. الرؤية الأولى دينية الطابع، ونتج عنها كتبه الثلاثة عن الخلفاء الراشدين: أبي بكر الصديق وعمر ابن الخطاب (١٤٠٣هـ) وعثمان بن عفان (١٤٠٤هـ). أما الرؤية الثانية فتمثلت في تسجيل تقديره واعجابه الشخصي بالتراث الوطني السعودي الذي عاصره وخاصة في حقلي الأعلام والحياة الاجتماعية التي تغيرت معالمها تحت مفعول الطفرة التنموية الحالية للبلاد. ولأن محمد علي مغربي من جدة وإليها فقد ميّز هذا التسجيل وقيّده بالاشارة إلى الحجاز، أعلامها وحياتها.

لا يغرب عن البال ذهاب المهتمين بالتاريخ في الآونة الأخيرة، وباطراد، إلى التقاط ملامح حياة الناس العاديين بدلاً من التركيز المعهود على الأحداث الرسمية للبلاد. وقد طلع من هذا الاتجاه نموذج في الدراسة التاريخية عُني بتجميع صور الحياة اليومية في روما القديمة، وبلاد الرافدين، ومصر القديمة وغيرها من مواقع الحضارات التليدة. أما في حدود الحياة القريبة من المعاصرة أو الحديثة، جريا على المصطلح التاريخي، فقد تفشت نصرة الوثائقية، وهي نموذج غربي في الكتابة يمنح للقارىء المجد فرصة وافية لتقصي الحقائق بنفسه دونما عبور من خلال عين المؤلف وسمعه ورأيه في الأحداث ونتائجها.

أما محمد علي مغربي فقد سلك نهجاً يتجذر في التراث التصنيفي العربي، فكتب الطبقات التي عُرف بها التاريخ الاسلامي هي المثال الذي حذى مغربي حذوه في كتابه (أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة) والذي يقع في جزأين يستوعبان ثلاثين ترجمة لرجالات هامة في مدن الحجاز الأربع: مكة المكرمة، المدينة المنورة، الطائف وجدة. أما (ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة) ففيه من كتب الخطط كـ (تاريخ مكة) للأزرقي وكتب تواريخ المدن مثل (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي و(تاريخ دمشق) لابن عساكر عدة مشابهات. ويمكن افتراض أن المناهج الحديثة في الكتابة اقتصرت على دفع مغربي باتجاه تبويب كتابه حسب المناشط والمظاهر التي ميزتها لغة العصر وجعلتها وحدات منفصلة وهي في الواقع كماً متصلاً. فالحياة الأسرية تغدو معزولة عن تخطيط المدن وعن الأزياء والتعليم. والطب يصير بعيدا عن الصنائع والفنون والأطعمة. والغناء يتباعد عن الرياضة وألعابها. وهذه المسائل كانت إلى حد كبير مشتبكة في النظرة التأليفية العربية القديمة حتى يتداخل وصفها ويتكامل فهمها.

مقدمتا الطبعتين الأولى والثانية :

أشار المؤلف إلى نشر هذه الفصول عن ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة لأول مرة في جريدة البلاد وذلك في حلقات أسبوعية. ويرى مغربي أن متابعة المهتمين للكتاب في ذلك الطور كان مساعداً له في الحدب على انجازه في كتاب. أما في مقدمة الطبعة الأولى فيشرح الكاتب كيف دخلت بعض هذه الملامح في كتابه الخاص بتراجم الحجازيين، ثم كتب إليه البعض يستزيدونه من تلك الملامح فأفرد لها هذا الكتاب. وعن خلفية شغفه بهذه الملامح واستعداده لتسجيلها يذكر مغربي أنه من مواليد ثلاثينات القرن الرابع عشر الشيء الذي اتاح له شهود التغيير الكبير الذي طرأ على حياة الناس في الحجاز خلال الفترة من تلك البدايات إلى اليوم وهي فترة يقدرها بسبعين عاماً. ويشير مغربي إلى تصنيفه هذا باصطلاح البحث لكنه أيضاً يرى أنه يرتكز إلى الذكريات (ص١٠). وإلى جانب ذلك يرغب المؤلف في تحديد المدة الزمنية التي تشغلها ذكرياته عن تلك المتغيرات وهي حقبة الأعوام الثلاثين البادئة بالأربعينات والمنتهية في أواخر الستينات. هنالك سببان للتمسك بهذه الفترة في نظر مغربي: أولهما أن وعيه وادراكه نضجا في هذه الفترة فاستوعبها، وثانيهما أن نهاية الحرب الثانية عام ١٣٦٤هـ عاصرت بداية النهضة والانفتاح اللذين فجرهما ظهور الزيت في البلاد. فلما جاء التغيير المذهل كما يصفه المؤلف ليبدل حياة الناس صار تسجيل صورة الماضي الذاهب مبرراً وملحاً حسب اعتقاده.

الفصل الأول : الأسرة وعاداتها :

الخاصية الكبرى للحياة العائلية في تلك الحقب السالفة كما يرى مغربي هي الترابط. والمؤلف يصف التقسيمات الداخلية للبيوت ليؤكد اجتماع الشمل في الدار الكبيرة. وتبهر القارىء منذ الوهلة الأولى المسميات المحلية لكل الأشياء التي يمتلكها الانسان يومئذ، بكل ما في هذه المسميات من تأصل في المفردات اللغوية أو تعريب واستلاف لكلمات دخلت إلى الحياة في المنطقة مع القادمين إليها، ماكثين أو راحلين، أو جلبها المسافرون معهم من رحلاتهم التجارية ومن الأسفار للعلاج والزيارة. في هذا الفصل يستعرض المؤلف الهيكل الأسري وآدابه ومراسيم الزواج والمآتم والعادات المتبعة في الأعياد. وقد نجد بعض المعتقدات التي ارتبطت بهذه المراسيم في ثنايا العرض، مثل تشاؤم الناس أيامئذ من اقامة الزواج في صفر أو جمادى الأولى أو الثانية أو رمضان (ص٢٢). كذلك يلاحظ غلبة العنصرين الشامي والتركي على الخياطة النسائية خاصة في التطريز وهو قول يتضارب قليلاً مع ما يرد في الفصل الثالث عن غلبة المزاج الهندي على فنون الخياطة النسائية (ص٨٤). كذلك يشغل هذا الفصل بذكر واف للأطعمة التي تقدم في ولائم الأعراس ومناسبات الأعياد والمآتم رغم أن للأطعمة والأشربة فصلا خاصا بهما (ص١٨٦ وما بعدها).

الفصل الثاني : المُدن :

يقرر مغربي في صدر هذا الفصل أن مدن الحجاز كانت حتى منتصف الستينات من القرن الهجري الماضي تحاط بأسوار لها أبواب، وكان أظهر هذا في مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وجدة. ثم يصف المؤلف حارات كل مدينة وما طرأ عليها من تغيرات عمرانية. وهنالك بضعة تعليلات لأسماء الأماكن استعان فيها مغربي بمن يعلمون، ومثال ذلك «باب النبط» (ص٥٤). وقد كان واضحاً ها هنا أن ذكريات الكاتب مرهونة أغلبها بمدينة جدة، ومن ثم تركيزه عليها والاكتفاء بصفحة واحدة عن كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف. وتغيب عن الصورة الحجازية مدن الساحل الأخرى مثل ينبع البحر خاصة فيما تفردت به من حياة مبنية على صيد السمك. ولحد كبير فإن ضواحي المدن وبواديها لا تجد في ملامح مغربي هذه إلا اشارات نادرة تتطرق إلى الصورة في المدن حينما يرد أمر مقترن بأهل الضواحي والبادية . ولعل مغربي لم يسع إلى ايراد كل الجوانب التي كانت ستغطي موضوعه عن ملامح الحياة في الحجاز وإنما

جعل النماذج التي يسردها وأغلبها عن الحياة في جدة تنوب عن صور الحياة في المدن الأخرى وضواحيها، كمطلب تفصيلي. والسؤال هو، أترى كانت الوثائقية ستفيد المؤلف لو حاول أن يجمع من صحف تلك الأيام ومحاضرها الادارية وما عداها تفاصيل أكثر عن الأشياء التي لم يرها في المدن الأخرى نسبة لانحصاره الأطول في جدة؟.

أما عن جدة فقد تحدث المؤلف عن البيوت والأسواق والحوانيت واثمان العقار والأماكن المؤجرة للقنصليات كما أورد بعض المعلومات الموجزة عن أسواق مكة المكرمة والمدينة المنورة. وقد ساق المؤلف وصفاً جميلاً لفن العمارة في جدة وما يرتبط بها ثم قارن بايجاز بين الذي في جدة من أوضاع عمرانية وما في سواها من المدن الحجازية. هذا ويشمل ذلك الوصف التطرق إلى المصطلحات التجارية والبنائية الدائرة في تلك الأيام وما تشملها من أصناف المواد الجيرية والخشبية والحجرية ومن أثر للبيئة الطبيعية على العمارة خاصة رطوبة جدة وملوحتها.

الفصل الثالث : الملابس والأزياء :

يلحق بهذا الفصل جزءا مما يجيء في الفصل الأول عن الحياة الأسرية ونعني أزياء الرجال والنساء. ويبدأ المؤلف بوصف الجبب الرجالية وما تصاحبها من ملابس وخاماتها وتفصيلها وهيئات لبسها وما يميز طبقات الناس في ملابسهم. فالعلماء يتقشفون ويوقرون أحوالهم بينما على التجار تظهر النعمة وعلى الوجهاء الهيبة وعلى العمال الخشونة وعلى البدو ملائمة البادية ثم على الشباب «الغندرة». وينجلي في هذا الفصل المفعول الدائم لتأثر الحياة الحجازية بالقادمين عليها والمتاجرين معها وذلك في البضائع القماشية وطرق خياطتها. ولا يمكن تعليل التغير السريع في لباس أهل الحجاز في تلك المدد إلا من خلال توافد البواخر على موانيها ورحيل الحجيج إلى مدنها. بل إن الظاهرة الحالية من غلبة الهنود في حوانيت الحياكة يمكن ايجاد مسببات لها فيما يدلل عليه مغربي (ص٨٤ مثلاً) من توافد الخامات الهندية وفنون حبكها على البلاد وميل الأهالي إلى الأخذ بطرقهم في الزي والزينة. وهذا لا ينفي وجود آثار أخرى ملحوظة آتية من الشام والعراق والغرب الأوربي. وأظهر هذه كما يرى مغربي يرتبط بالحرير والحلي والعطور وعاديات أخرى كالساعات والأقلام والخناجر والمسابح وعلب الدخان والحناء.

الفصل الرابع : التعليم :

أدرك مغربي الكتاب التقليدي حيث يتعلم الصبيان تحت توجيه الفقيه حروف الهجاء وبعض الحساب كما يحفظون السور القصيرة من جزء عم. فإذا واصلوا تعليمهم تابعوا حلقات التدريس في المساجد. وكان للبنات فقيهة تعلمهن القرآن وأخرى تعلمهن أشغال الإبرة والتطريز. أما المدارس التي تفتح مغربي عليها فالمدرسة الرشدية الحكومية بجدة وهي من العصر العثماني ثم مدارس الفلاح التي أسسها بجدة ومكة المرحوم الحاج محمد علي زينل رضا. وفي هذه المدارس تخرج الطوف الأول من الأدباء والكتّاب والشعراء الحجازيين الذين ظهرت اسماؤهم في الأربعينات والخمسينات. وكانت هنالك المدرسة الصولتية بمكة المكرمة ومدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة. ومن هذه المدارس ابتعث بعض التلاميذ إلى الهند للتدريب الذي سيؤهلهم للدعوة والتدريس.

أما تدريس اللغة الانجليزية، كما يقول مغربي، فقد اقتصر أوائله على بعض الهنود الذين يتحدثون العربية وعلى سودانيين عاملين في جدة مع الشركات الأجنبية مثل الأديب السوداني الراحل عرفات محمد عبدالله وأيضاً على حجازيين تعلموا في السودان أمثال الأخوين ابراهيم واسماعيل زهران وابراهيم نشار واحمد عشماوي. فلما حل العهد السعودي تم تشجيع مدارس الفلاح واستنت سياسة حكومية تعليمية نفذها مدير المعارف العام محمد طاهر الدباغ. وبه بدأت البعثات التعليمية إلى مصر.

ويتحدث مغربي عن الأدب والثقافة وقد كانا يبدوان خلال

العهد الهاشمي في جريدة القبلة الناطقة بلسان الحكومة ومقرها مكة المكرمة. ويقول مغربي إن طلائع الأدب الحجازي ظهرت عام ١٣٤٤هـ في العهد السعودي بكتاب حرره محمد سرور الصبان هو (أدب الحجاز) . ويورد مغربي عدة نماذج لما حوى الكتاب. ثم صدرت صحيفة «صوت الحجاز» عام ١٣٥٠هـ وفي عام ١٣٥٦هـ صدرت كل من «جريدة المدينة المنورة» ومجلة «المنهل» الشهرية التي اطلع بها المرحوم عبد القدوس الأنصاري. وقامت جريدة «أم القرى» بالحلول مكان «جريدة القبلة» في النطق بلسان الحكومة السعودية. وكل هذه الجرائد والمجلات فتحت صفحاتها لأقلام الكتّاب والأدباء. ومن تلك المقالات والأشعار أعد محمد سعيد عبد المقصود وعبدالله بلخير كتابهما (وحي الصحراء) والذي أعادت تهامة للنشر طبعه في أوائل هذا القرن الخامس عشر.

ويتحدث المؤلف طويلا عن مصادر الحركة الأدبية للحقبة بين الأربعينات والستينات فيذكر المكتبات الأولى بجدة ومكة ودور الصحف السياسية المصرية وكتب ومقالات أدباء مصر والمهجر في صياغة المواهب الحجازية. وكانت سلاسل القصص الشعبي المطبوعة مثل سيرة ابي زيد الهلالي، عنترة وسيف بن ذي يزن تؤجر للأسر فيقرأ الصبيان لأهل الحوش من تلك الحكايات حلقات يومية. ولم يذكر مغربي حقيقة ثابتة ها هنا وهي أن لهذه القصص قراء مداومين في المقاهي خاصة في جدة. وبالمثل لعبت الأغاني الشعبية المجهولة المؤلف والملحن دوراً هاماً في الواقع الثقافي وكذلك فعلت الأمثال التي يورد منها مغربي نيفاً وعشرين مزودة بشروحها.

الفصل الخامس : الطب والأطباء :

لم يكن الطب العلمي قد دخل إلى البلاد في الفترة التي يتحدث عنها المؤلف، لهذا فقد قصر فصله هذا على ذكر الوصفات البلدية (الطب الشعبي) لعلاج بعض الأمراض يومئذ. وكان هنالك الكي بالنار لذات الجنب الذي يعتقد مغربي أنه هو ما يسمى حالياً الالتهاب الرئوي. وفي حالة الماء الأزرق الراسب في الأعين كانوا يفصدون العين. ولهذين المرضين أطباء متخصصون كما كان المزين متخصصاً بالمثل في علاج الجروح المستعصية وختان الأولاد، وكانت القابلة (الداية) متخصصة في علل النساء. وكانت الجدات وكبار السن عامة يدرون باستعمال بعض الأعشاب لبعض الأوجاع مثل مشروب «السنامكي» وزيت الخروع لتسهيل الأمعاء وتطبيب الحمى بنبات الخاشكير ووضع مسحوق «الأدافور» على الجروح. أما الأمراض التي كانت تحتاج إلى أطباء علميين وعمليات جراحية فقد يذهب أصحابها إلى السودان أو مصر أو الهند. وأظن أن مغربي قد نسي مُجبّر الكسور من هؤلاء الأطباء الشعبيين. ويقول مغربي إن القنصليات كانت لها عياداتها التي ربما ساعدت بعض المواطنين، وفي المحجر الصحي كان هنالك طبيب ومساعدون لادراك الأوبئة. فلما جاءت الخمسينات والستينات وصل إلى البلاد الطوق الأول من الأطباء السعوديين ورادوا حركة التطبيب العلمي.

الفصل السادس : التجارة وأحوالها :

قد يُعد هذا الفصل أثرى أجزاء الكتاب بالمعلومات النادرة الكاشفة لضروب الحياة في الحجاز قبل الطفرة الاقتصادية السعودية. فتجارة الناس إنما تقوم على احتياجاتهم اليومية. وقد استهل مغربي هذا الموضوع بتقرير يؤكد فيه أن تجارة الاستيراد في الفترة الواقعة بين الأربعينات والستينات من القرن الهجري السالف إنما كانت أساسا واردة من الهند. وهو يذكر من الأصناف المستوردة : الأرز، السكر، الحبوب، الشاي، والبهارات كافة. ورغم أن مغربي كان قد تحدث في فصول خاصة بالملابس عن الحرائر والأقمشة الشامية إلا أنه أغفلها في هذا الفصل، على الأقل في أوله وذلك رغماً عن ذكره لجلب الشعير والتمر من العراق والفواكه والدخان والبصل والفول من مصر والسمسم والبن من اليمن (ص١٤٢).

ويردف مغربي لذلك بذكر الشركات الأجنبية العاملة بجدة يومئذ وكيف اضطرتها المناهج التجارية السعودية على تصفية أعمالها ومغادرة البلاد. وقد تضمن وصف وسائل النقل قولاً كثيراً في البواخر العابرة للبحار والسنابك والسفن الشراعية والقوارب الصغيرة ذوات المجاديف وذوات المحركات. ويتضمن العرض التجاري وسائل التحويل المالي في عصر لم تكن فيه بنوك وقطع العملة المتداولة. ويستأثر ميناء جدة كمعبر هام للتجارة بين الجزيرة العربية ومصر والهند من جهة ومن جهة أخرى وكذلك لنقل الحجيج من أنحاء العالم الاسلامي الشاسعة، يستأثر بحديث طويل. فيتعرض مغربي للحجر الصحي والمتنزهات وتجارة الماء وما في ذلك من عيون طبيعية وآبار وصهاريج . كذلك يذكر المؤلف أن الوقود كان يومئذ يعتمد على الفحم والحطب، ويدفعه ذلك لكشف أنواع المصابيح المستعملة على تلك الأيام. وقد تعرض الكاتب لتجارات أخرى مثل تجارة السمن وفصّل وحدات الموازين والمكاييل السائدة. وأجدر بنا ملاحظة خلو هذا الفصل من التطرق إلى المدن الحجازية الأخرى.

الفصل السابع: الصنائع والفنون:

كانت هنالك صناعة المسابح كاليسر وغيرها. وكان للخراطة دورها الهام في زينة الصنائع الخشبية. أما الفنون الأخرى فقد شملت أعمال الجص وزينات الهودج. وكانت الطائف مشهورة بعصر الورد. أما الماء فكان يستدعي حفظه تطوير صناعة فخارية متينة. ولجريد النخيل والسعف دورهما في الحياة الشعبية في تلك الحقب، والناس يتذكرون «الزنبيل» و«الحصائر» والمكانس والمقشات.

الفصل الثامن : الأطعمة والأشربة :

من الطبيعي أن يحتل السمك دوراً هاماً في مائدة بلد ساحلي مثل الحجاز. لهذا يكثر مغربي من ذكر أنواعه وأسواقه في هذا الفصل. أما بعض وصفات الأطعمة التي عرفت في الحجاز فقد جاءت إليه مع الوافدين من الحجاج والتجار. وللهند كذلك مكانها البارز في استغلال البهارات في الأطعمة والأشربة. هنا يتكرر شيء مما تعرض له مغربي في هذا الفصل بالأعياد عن الحلوى وأنواع الأطعمة الخفيفة مثل «الزلابية واللقيمات والفطير والعجائن والسمبوسك» والأصناف الرمضانية والطبخات اليومية من الخضروات. ولا يكتمل القول عن الأطعمة إلا بالتطرق إلى معاصر الزيت التقليدية التي تدار بالبهائم. لكن مغربي يتحدث عن اجادة المكيين لطبخ السمك ويقول بأن أشهر الطباخين على تلك الأيام كان مكياً.

الفصل التاسع : فن الغناء والطرب :

لم يمنع الجو الديني المكثف بالحجاز أهلها من الترويح عن أنفسهم بشيء من الغناء فاشتهر لهم بمكة اسماعيل كردوس وحسن جاوه. ويورد مغربي نوعاً من التغني بالحماسيات والوصف الطبيعي والصوفيات (ص٢١١). أما آلات الطرب فقد انزوت في الأماكن البعيدة والمكتومة كما عرفت اسطوانات الغناء المسجلة في مصر لمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم. وكان للمغنيين ملابسهم المميزة. أما في الأسفار فقد عرف الحداة للركبان خاصة في العهد الهاشمي. ويذكر مغربي المترجمين والمؤذنين بألحان متفردة والمسحراتية في هذا الفصل. والنساء عُرفت لهن في دوائرهن مغنيات بارزات.

الفصل العاشر : الرياضة والألعاب :

ظهرت في الأربعينات كرة القدم وانشئت الأندية الرياضية وفي مقدمتها فريق الاتحاد ثم فريق عُرف بالمختلط وأخيراً جاء الفريق الأهلي. ويخصص مغربي وصفاً للألعاب الشعبية المعروفة خلال تلك الحقبة مثل «السقال والبربر». ويقول أن الكريكيت والتنس كانا قد عرفا لدى الأوربيين ومن جاراهم. وضمت الألعاب الذهنية أشياء مثل : الشطرنج و«الضُمنة والباصرة»

وأوراق اللعب الوافدة من الخارج. وأهدت الهند للحجازيين لعبة تسمى «كيرم».

ملاحظات ختامية :

تقوم الصور الفوتغرافية واللغة الشعبية بدور بارز في اضفاء نكهة على هذه الذكريات الحجازية. فهنالك نيف وأربعون صورة بعضها فوتغرافية وبعضها رسمية خاصة من أعمال الفنانة صفية بنت زقر. وهنالك توضيحات لأشكال العملات التي انقرضت.

أما اللغة فإن مغربي لم يتكلف فيها وترك لذكرياته أن تختار الوسيلة الشعبية في المسميات في كثير من الأحيان. فهنالك «الحيطان» (ص٧٥) و«أسنان النساء» (ص ٨٤) يعني أعمارهن و«المكائن» وأمثالها تجعل للاستعمال الشعبي للغة وزناً تاريخياً وإن كانت لا تروق لعلماء العربية والمتعصبين لإفراد التأليف باللغة الفصحى.

نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب

لابن سعيد الأندلسي بتحقيق : نصرت عبد الرحمن

أحمد كمال زكي

أستاذ في قسم اللغة العربية ــ كلية الآداب

جامعة الملك سعود

حسن محمد الشماع

أستاذ في قسم اللغة العربية ــ كلية الآداب

جامعة الملك سعود

ابن سعيد الأندلسي/ نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب. تحقيق نصرت عبد الرحمن.ــ عمان. مكتبة الأقصى، ١٩٨٢م.

لا تزال مكتبتنا العربية تفتقد المحققين المدققين لبعث الحياة في المخطوطات التي غبر عليها الزمان وهي لا تزال راقدة فوق الرفوف، فهي محتاجة إلى أن تنتشلها أيدي هؤلاء العلماء.

نعم نعترف بأن عالمنا العربي بدأ نهضته الحديثة باحياء التراث وبعث الماضي ليكون بداية أصيلة لبنائه الحضاري، وتمثل هذا الاحياء بتحقيق العشرات من كتب التراث، غير أن الأمر لا يزال بين مدّ وجزر ، وفي بعض الأحيان تتوقف الحركة الاحيائية حتى يتنبه إليها الطلعة من محققينا.

ومن الكتب التي فاتتها تلك الحركة حتى السنوات العشر الأخيرة كتاب «نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب» لابن سعيد الأندلسي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٦، ١٢٨٧م. وقد وكل إلينا تحقيق هذا السفر المخطوط منذ زمن ليس بالقصير، ولما بدأنا العمل فيه، هالنا ما يحتاج إليه من جهد لا يتوقف عند تقويم النص، أو إقامة العبارة، ومراعاة تسلسلها أدائيا وفكريا فحسب، وإنما كذلك نتابع المؤلف ــ وهو عالم كبير ذو ثقة لا ينازعه فيها كثيرون ــ في المصادر التي استقى منها مادة كتابه، وكانت كثيرة ومتنوّعة.

ولعل هذا يفسر التأني الصابر الذي اصطنعناه في اخراج هذا السفر الاخراج اللائق به، وقد علمت بهذا الصنيع المؤسسات والشخصيات ذات الصلة بالتراث من أمثال الدكتور نصرت عبد الرحمن الأستاذ بكلية الآداب في الجامعة الأردنية. لكننا فوجئنا به يطلع علينا بالنشوة محققا ومعلّقا عليه، وكدنا نسعد بذلك مع شعور بالأسى غير قليل، لأننا كنا قد أنجزنا أغلب مقاطع الكتاب.

غير أننا لم نكد نأخذ أنفسنا بقراءة النشوة المحققة بيد أستاذ للعربية ــ له جهده المعروف في التراث ــ حتى اشتد أسانا، إذ تبين لنا أن الدكتور نصرت اعتمد على «مانفريد كروب» المستشرق الألماني الذي أخرج اللوحات (١٧ ظ إلى ٨٨ ق) من النشوة، في دراسة له عن تاريخ العرب الخلص، من قبائل قحطان(١) اخراجا سيئا حافلا بالتحريف.

وفيما تفرّد فيه المحقق، غير مستعين بأحد، تردّى في مئات الأخطاء، فرأينا أنه لا بد من أمرين :

الأول : مراجعة جزئي الكتاب المحقق مراجعة تهدف إلى تلافي التشويه، وذلك بالتنبيه إلى الأخطاء على النحو الذي سنبينه.

والثاني : العودة إلى المخطوطة باكمال تحقيقها بعد أن انصرفنا عنها زمنا، كنا طواله تحت الحاح كثير من المشتغلين في الحقل الأدبي بوجه عام، وفي التحقيق العلمي بوجه خاص، بغية الاستمرار في اخراج هذا الكتاب.

* * *

في هذه العجالة سنعمد إلى رصد البارز من الأخطاء التي وقعت في الجزء الأول من كتاب «**نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**»، لابن سعيد الأندلسي بتحقيق الدكتور نصرت عبد الرحمن (مكتبة الأقصى ــ عمان ١٩٨٢م) وليس هدفنا أن نغمط حقه، ولكن هدفنا هو الوصول إلى حدّ الكمال، وهذا شرط البحث العلمي. وكثيرا ما طمست قيمة أعمال من جراء العجلة في إصدارها، وضاعت فائدة كتاب لم يحسن اخراجه، ووقف عند أدنى حد من الدّقة.

على أية حال، أجمعنا الرأي على أن ندل على مواطن الخطأ والتحريف في تحقيق الدكتور نصرت، وعلى ما جاوز به الجادة، ليكون الانتفاع به أكثر، ولا سيما أن عمل ابن سعيد كان ــ وسيظل ــ موسوعة أدبية تاريخية، استوعبت خلاصة تجارب غيره، في مجال التاريخ والأدب والأخبار والنوادر والأشعار.

ولسنا نزعم أنّ ابن سعيد وفق تماما إلى ما استهدفه، وهو تصوير حياة العرب في الجاهلية، وهذا راجع إلى أهم الأسباب التالية :

١ ــ أن معظم ما جاء عن الجاهليين كان متناثرا، أو مفككا، ومتضاربا أحيانا. وكثر التحريف فيه والنّحل، وبعضه كان يرد بلا تخصيص واضح.

٢ ــ أن قدرا كبيرا من أخبار الجاهليين لم يسمح بوصوله إلى المسلمين لاحتوائه على ما رآه الأوائل ترويجا لعادات نسخها الاسلام، وتنويها بقيم عفّ كثير من العلماء ــ مثل الأصمعي ــ عن روايتها.

٣ ــ أن الفقهاء منعوا ــ منذ عهد مبكر ــ قصاصي العامة من الجلوس للقصّ، وكان هؤلاء قد وقفوا أنفسهم على الاهتمام بالغريب النادر والخرافي العجيب، ويمنعهم غاب عن معارف المسلمين كثير مما له علاقة بالأساطير.

ويكفي هنا لنلفت الأنظار إلى كتاب ابن سعيد، ثم هو يكفي أيضا لنشير إلى الأخطاء التي جاوز بها الدكتور نصرت طريقة التحقيق العلمي في الجزء الأول من النشوة، وللثاني حديث آخر في قابل، إن شاء الله.

وها هنا رأينا أن نقسّم البارز من تلك الأخطاء إلى المجموعات التالية :

الأولى : تشمل التحريفات التي وقعت منه في ثمانية وثمانين لوحا، وهي مجموع ما حققناه في الجزء الأول من النشوة (٢٨٦ مرة).

الثانية : تشمل ما أضافه من عنده إلى النص ولم يكن فيه (٤٢ مرة).

الثالثة : تشمل ما أسقطه من النص غفلة (٩٣ مرة).

الرابعة : تشمل أنواع الأخطاء التي لم يصوبها في الأصل والملحوظات العامة.

الجـــدول الأول

مجموعة التحريفات

النص في المخطوط	النص في المطبوع	صفحة	سطر
حلى	ضلى	٥	٤
العمالقة	العمالقة	١٤	٢٠
القبط	القفط	٤٥	١٤
هنالك	هناك	٤٥	٢٠
أخرجهم	أجرجتهم	٤٥	٢٣
عاد	عابر	٤٧	٦
قال: وأخذهم	وأتاهم	٤٨	٢
انه	ان	٤٩	١
ولا لثمود	أو لثمود	٤٩	٢
لاخوتها	لاختها	٥١	٢
من طسم	في طسم	٥١	٣،٢
تنعمي	تقنعي	٥١	١٣
فقالت	وقالت	٥٢	٤
يلتفتوا الى	يلتفتوا اليها	٥٢	٧
وأبادهم	فأبادهم	٥٢	٨
اخرجتهم	أخرجوهم	٥٤	١٥
العاتية	العادية	٥٤	١٦
منهم فراعنة	من فراعنة	٥٤	١٨
لقومي	بقومي	٥٥	٨
على البلاد	في البلاد	٥٥	١٢
بلادهم	ديارهم	٥٦	١٠
يسكنه	يسكنهم	٥٦	١٢
في جوار	إلى جوار	٥٧	٢
الأرقم بن الأرقم	الهرم بن الأرقم	٥٧	١٦
طالبة	مطالبة	٥٩	١٥
إنك غزوت	إن غزوت	٥٩	١٦
تغييرا	غيراً	٥٩	٢٠
قبح	قبيح	٦٠	٤
صاروا	لصاروا	٦٠	١٨
مضفورة	مضورة	٦٢	٤
اداثر	اداثر	٦٣	٣
للنفق	النفق	٦٦	٦
بأرض العراق	بريف العراق	٦٧	١٣
الغور	الغُمَير	٦٧	١٨
جذيمة	لجذيمة	٦٨	٣
العادية	العاربة	٦٨	١٠
منزله	موطنه	٦٨	١١
قد أشر وتكبر	قد تنبأ وتكهن	٦٨	١٣
من البان	على البان	٧٤	٨
بعض الشعراء	أحد الشعراء	٧٥	١٥
مقصورتين	معصورة	٧٧	٩
احداهما	احداها	٧٧	١٠
فانتصب	فاجتمع	٧٧	١٨
آخرهم	أحدهم	٨٠	٥
يوفون	يؤمنون	٨٠	١٨
طريق	طول	٨٢	٤
خيم	خيام	٨٣	٢
بالانهمال	بالاهمال	٨٣	٥
سور	سوق	٨٤	٥
الأرض	البلاد	٨٧	١٩
وإنهم الملوك	وإن الملوك	٩٣	١٨
المولد	ألمؤلف	٩٣	٢٢
الآن	اليوم	٩٥	١٤
للملك	والملك	٩٧	٣
سبأ	سميًا	٩٧	٤

يساعده	لسبأ عدد	٩٧	٤
يستقل	يستقبل	٩٧	٩
ملك	بلغ	٩٨	٦
نجلة	نجدة	١٠٣	١٢
أسفح	أسمح	١٠٣	٢٢
برجلك	لرجلك	١٠٥	٥
فاتحا	فاتح	١٠٥	١٢
السميدع	الهميسع	١٠٥	١٣
الأرضين	الأرض	١٠٧	٢
كامة	مامة	١٠٧	١٦
أنا	إننا	١٠٨	٤
تنخا (وهو خطأ)	تنخّم ([illegible])	١٠٨	١٣
دهيت	أتيت	١٠٨	١٧
بدر إليها	بادر إليه	١٠٨	١٧
فصارت	فسارت	١٠٨	٢٠
وأخذهما	وأخرجهما	١٠٩	١
يعمر	يعيش	١٠٩	٩
بها	فيها	١١١	٥
وصل	دخل	١١٣	١٥
وقد ذكر	ثم ذكر	١١٣	١٦
فقال له الخضر	فقال للخضر	١١٣	١٨
أيما	مما	١١٤	٦
تزهق	تزلق	١١٥	٥
حتها	حقا	١١٥	١٦
متفائل	سمّاه	١١٦	٨
فسبوا	فسمّوا	١١٧	٤
له	لها	١١٩	٨
ظافرا	ظاهرا	١١٩	٩
متراكم	متلاطم	١١٩	١٠
بعين	بعنق	١١٩	١١

يكفها	يكنّها	١١٩	١١
فجعل	فجل	١١٩	١٩
بها	بذلك	١٢٠	١
فتزوجها	فزوجها	١٢٠	٦
طائلا	نائلا	١٢١	٨
زحف	زحفوا	١٢٣	١
الأنس	الأنسر	١٢٥	١
تظلل	تظلله	١٢٥	١٥
من	بين	١٢٥	١٦
فقال	فقالت	١٢٧	١٧
ايضت	تصببت	١٢٨	١
جعلنا	حطّنا	١٢٨	٨
بدمي	لذمتي	١٣٧	٣
شمركند	سَمَرْقند (عربها دون تنبيه)	١٣٧	١٣
متوّج	مترّج	١٣٨	١١
جناتكم	جنائنكم	١٣٩	١٨
بلاد اليمن	بلاد العرب	١٤٠	٥
لئلا	كيلا	١٤٠	١٢
تروى	ترتوي	١٤١	٤
مِكْتلها	مِكْتَلُا	١٤١	١٥
كان	كانت	١٤١	١٧
تبّان	تبّع	١٤٦	١٦
شعراء	أشعار	١٤٧	١
فحاكموهما	أكبرهما	١٤٩	٦
هزم	هدم	١٤٩	١٨
ثلاثا وستين	سبعا وثلاثين	١٥٢	١١
أربعا وسبعين	أربعا وثلاثين	١٥٣	١٥
فشكا	فشكوا	١٥٤	٢
من عند هذه	من هذه	١٥٤	١١

يامه	يا اماه	١٥٦	٩
في النار	بالنار	١٥٦	١٠
مغارة	مفازة	١٥٧	١١
تحكمهم	تكمهم	١٦٠	١١
وحكم	[وتكلم]	١٦٠	١٩
إنها كانت	إنها كانت	١٦١	١٧
اثنتين وسبعين	اثنتان وسبعون		
بعضهم لبعض	بعض لبعض	١٦٣	٥
ثم قال	قال	١٦٣	١٢
قبل ذلك	من قبل	١٦٧	١١
أمرنا	شملنا	١٦٨	٢١
ضر كثير	شر كثير	١٧٢	٩
نصطبح	نصطحب	١٧٤	٣
تدلى	تدلّي	١٨٠	١
الحصن	الحضر	١٨٢	١٤
منهم الأزد	من الأزد	١٨٧	١٨
النبوية	المنورة	١٨٨	٩
بلسانك	بلسنك	١٨٨	١٧
اغتنم	واعانتهم	١٨٨	٢٠
همتي	عفتي	١٨٩	٧
أرى	أريد	١٩١	١
لو اصبت	إن أصبت	١٩٧	٢
الخطاب	المقال	١٩٩	١٥
جوابا	جوّالا	٢٠٢	٤
القول	الأمر	٢٠٦	٨
قال لي عمر	قاله عمر	٢٠٦	٨
فادفعها	فادفع	٢٠٦	١٩
عن جنازته	من جنازته	٢٠٧	١٢
قبائل	بني	٢٠٨	١٧
انخزعت	وتخزعت	٢٠٩	١٦

مناسكه	ما بمكة	٢١١	١٣
لابقي	ما بقي	٢١١	١٤
جبره	ردّه	٢١١	١٥
فباعه من قصيّ	فباعه إلى قصيّ	٢١٥	٥
برحلة	لرحلة	٢١٦	٦
فصارت	فسارت	٢١٨	١١
اصطلحا	اصطلحتا	٢٢٢	٢
الشام	الشامي	٢٢٢	١٥
الممنوع	المشهور	٢٢٢	١٦
عمرو بن غوث	عمروبن عدي	٢٢٣	٤
ضرب	هزّ	٢٢٤	١١
عقالهما	عقاليهما	٢٢٤	١٧
احضريني	احضري	٢٢٥	٩
فذبحه	فذبحها	٢٢٥	١٢
دفع إليها	دفع لها	٢٢٥	١٣
اشتوي	اشوي	٢٢٥	١٣
لا ماء	لا مال	٢٢٦	٧
أبو البختري	أبو الخيبري	٢٢٦	١٦،١٥
أبو البختري	أبو الخيبري	٢٢٧	٣
ينازع	يضارع	٢٣٠	١٤
رئيس	سيد	٢٣١	٣
منه الدهور	فيه الدهور	٢٣٥	٥
الحازمي	الحاتمي	٢٣٨	٢
بني عبس	بني عبد شمس	٢٣٩	٤،٣
تقتلوا بي سيدا	تقتلوني سيدا	٢٤٠	٩
جهة	جانب	٢٤١	٦
الحازمي	الحاتمي	٢٤٢	١٠
غوي	لحق	٢٤٣	٤
أطرار	أطراف	٢٤٦	٢
تبعه	تبعهم	٢٥٠	٥

بنتك	ابنتك	٢٥١	١١
فيه	إليه	٢٥١	١٦
بنى بها	بنائها	٢٥٣	٨
إن وعاءيكما	إن وعاءيكم	٢٥٤	١١،٥
بها	إليها	٢٥٤	١٠
فرمى به	فرماه	٢٥٤	١٤
شريطي	شريطتي	٢٥٥	١٢
فقال	قالت	٢٥٥	١٣
رجل	رجال	٢٥٦	٥
قدمه	يقدمه	٢٦١	٣
ثلاثين	عشرين	٢٧١	١٤
فولي	فتولى	٢٧٢	٨
ملكه	مكانه	٢٧٣	١
توفوني	توفونني	٢٧٣	١٢
هو يوم	بعد يوم	٢٧٧	٥
لما دان	بما دان	٢٧٧	٩
حصل	حمل	٢٧٨	١٠
هند	عمرو	٢٧٩	٩
فشرٌ يوم	فيوم شرٌ	٢٧٩	١٣
ان سألك	إذا سألك	٢٨٢	٦
الحبس	الحيرة	٢٨٣	١٢
حرمك	حرسك	٢٨٤	٢
كامنها	كان فيها	٢٨٥	١٠
جيشاً فيه الفيلة والعدد	جيشا من الفرس والعرب	٢٨٥	١١
أرضا	أرضي	٢٨٩	١٥
أعلقه	أعلقته	٢٩١	٥
عمرو	عمر	٢٩١	١٠
بسيفك	السيف	٢٩١	٢٢
جس	حفر	٢٩٤	٨
حيّات	بحيّات	٢٩٤	٩
الركن والبيت	البيت والحجر	٢٩٦	٦
عامر	ظاهر		
بين الحجون	من الحجون	٢٩٧	٧
رحل	وصل	٢٩٧	١٥
القليس	العلمين	٢٩٨	٦
بتسليم	تسليم	٢٩٩	٨
صاحبا	صاحب	٣٠١	١٨
وآل الحال	وآل الأمر	٣٠٢	١٧

الجدول الثاني

مجموعة الاضافات

الإضافة هي كل ما تحته خط	الصفحة	السطر
ونخرج من أرض العرب	٤٥	١٩
ودليل على ذلك	٤٦	١٧
وعلى فترة	٤٧	١١
إنّ لي بالعراق	٦٤	٨
تكنى عن ذلك	٦٧	١٥
قال لابنه : إني	٩٥	١٦
مقام ما، فتفرقت ...	١٠٣	١٣
قد بطلت حكمتي	١٢٥	١٥
وكان من أجمل أهل زمانه	١٣٨	١١
بلغة أهل الحبشة	١٤١	١٦
وأعلام كلب ...	١٧٢	١٠
صلى الله عليه وسلم(٢)	١٧٥	١٠
وكان حارثة ...	١٨٨	٦
وكانت له الوقعة ...	٢٠٣	١

أخسر صفقة من صفقة أبي غبشان	٢١٤	١٠
لقب كل ملك منهم	٢٢١	٦
وبجيلة بن أنمار، وبجيلة بن أنمار	٢٦٥	٩
هو المنذر بن امرىء القيس	٢٧٧	٤
وكان النعمان من بينهم	٢٨٢	١

الجدول الثالث
مجموعة السقط

الساقط هو ما تحته خط	الصفحة	السطر
من اشتهر في العالم ذكره ثم انقطع نسله	٤٥	٤
وعظمته آلاف الأمم	٤٥	٢١
كل شيء له صوت في الأرض	٤٩	٩
ومن واجب الأدب وكلام البيهقي	٥١	١
فتم لهم ذلك وعزت جديس وذلت طسم وانقلبت الآية	٥١	٩
يقال لها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر منها، تبصر الراكب على ثلاث،	٥٢	٣
فمر أصحابك، فليقطع كل رجل منهم شجرة.		
فوثب عليه حتى قطعه وأكله	٥٤	٦
ذكر منهم بالحجاز	٥٥	١
فقال لهم السُّميدعُ : يا قوم إن هؤلاء...	٥٦	٢
ولم يبق منها إلا من لاذ بالجبال	٥٦	١٦
مطلب في ان السميدع لقب الملوك منهم قبل قيصر وكسرى وفرعون وتبع في أنها ألقاب الملوك لا أسماء(٣)	٥٦	٢٠
فعرفت به، وتوالت بها ملوكهم	٥٧	٦
ولا لنفسها كفؤا غيره	٦٠	٦
ولن تموتي الا بيده	٦٣	٩
ثم حمّل كل رجلين في غرارتين	٦٥	١
فنخس بها الغرارة	٦٥	١٧
فان واثقتنا الا تغزونا إن رددناهما اليك	٦٩	١
إلى أن كان منهم النعمان	٦٩	٦
أخبر الله تعالى عنهم في قوله: «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام»(٤)	٧٧	٧
ثم يقول : عليك ورحمة الله	٨٠	١٣
يقطع مسافة النصف	٨٢	١٥
إنهم جبلوا على ما هو مشهور من قلة الانقياد للأحكام المدنية،	٨٣	٥
وإنهم طبعوا على إطعام الطعام.		
أرض كنعان بالشام إلى البيت	٨٧	١٨
نطق العربية البينة	٨٨	٦
ثم جاورهم بها القوط	٨٨	١٩
تتبعه جميع الممالك	٩٣	١٤
كما أن تبّعا للملك الذي يلي اليمن	٩٦	١٦
وجعل تحتها أسرابا	١٠٤	٨
فبرز إليه تنين	١٠٥	١٢
اشتد جوعه ثم اشتد عطشه	١١٣	٣
فخطبها من أبيها الجني	١٢٠	٦
تواضع وذلة تحت عزّ	١٢٥	١٠
ففعلوا ذلك فقال : هذا ماء ...	١٢٨	١
عمرو بن حمير المنتاب	١٣٠	٩
وغضبت العرب لغضبه، وقال في ذلك شعرا، ونهض بالجموع	١٣٢	١٩
فدوخ بلاد خراسان	١٣٧	١٠
فقيل بعد ذلك سمرقند، أي شمر خرَّبها، ثم عربت فقيل سمرقند.	١٣٧	١٢
إن الوالي ملك اليمن بعد تبع	١٣٨	١٦

فاما الرحمة الاولى فهذه التي أنتم فيها	١٣٩	١٦
كان سيل العرم	١٤٤	٧
فأكلت منها كل ذي جمجمة	١٤٩	١٤
وشكا إليه اليهود(٥)	١٥٤	٢
إنه كان عاقلا	١٥٥	٣
فسار ذو نواس إلى غزوهم بنفسه، حتى		
عرضهم على أخاديد احتفرها في الأرض	١٥٦	٧
وملأها جمرا، فمن تابعه على دينه ..		
والجدن : حسن الصوت بلغة اليمن	١٥٧	١٠
مالك بن زيد بن سهل	١٦٠	٧
أبرهة ملك الحبشة وهو على فيل	١٦١	١٣
ثم انقرض ملكهم على يد جعفر بن قرط	١٦٧	٥
مالك بن حمير، ملك ثلثمائة عام ومات اذ		
حل واعتبر وأخرج وازدجر، ومكتوب أيضا	١٧١	١
بعده		
وشربت لي قبل نفسك	١٧٣	١٥
وصف به ابن جذام	١٧٤	٨
قال الحازمي : وهي قبيلة ...	١٧٥	١٥
فقال جار السوء الذي ان خاصمك بهتك	١٧٨	١٠
وكانت من أجمل نساء أهل زمانها	١٨٠	١٩
فجرى لهم هنالك مع الروم ...	١٨٨	٨
فقال له أحد غسان ...	١٨٨	١٥
قال البيهقي(٦): وغلبت الخزرج	١٩٠	١
ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي	١٩٦	١
قال حسان بن ثابت الخزرجي	١٩٩	٩
وكان مسكنه بالبلقاء وبني بمعان	٢٠١	٦
وذكر أباه المنذر فقال ...	٢٠٢	١٤
ثم ملك أخوه الحارث	٢٠٣	٩
ثم ملك ابنه الحارث بن حجر	٢٠٣	١٩

فحلف ألا يلقى أحدا ممن يعرفني إلا أهدى		
إليّ معه شيئا	٢٠٧	٨
وقد تقدم ذكر عمرو مُزيقياء	٢٠٩	٨
فسكنت من هنالك	٢١٥	٨
غربي الفرات في ما بين	٢١٨	١٧
وطيء كثيرة الكرماء	٢٢٢	٨
نزلت بلاد نجران	٢٣٨	٧
وأنشد أبو تمام في حماسته لحاتم ...	٢٢٧	٥
فضحكت وقالت : قبحك الله ...	٢٣٩	٦
فأطعم أهل الماء منهما	٢٥٣	١٤
ينتظر وجوب الشمس ليروح به	٢٥٤	٩
والأشعر بن سبأ وعاملة بن سبأ	٢٦٩	٢
يوم عين أباغ	٢٧٧	٤
عمرو بن هند و هو	٢٧٨	٦
انها نار قرى	٢٧٨	١٢
فسار إلى بني شيبان ونزل عليهم في ذي		
قار، فلقي هانىء بن مسعود سيد بن شيبان	٢٨٤	١٣
وذكر صاحب التيجان ...	٢٩٠	١٦
وكان صاحب أمرهم حينئذ فاران بن		
يعقوب	٢٩١	٤
قال لاياد في حديثه : كنت ...	٢٩٨	٥
رحلت من مكة إلى أخوالها قضاعة، وكانوا		
نازلين بالجار	٣٠٠	٥
كلام صاحب التيجان	٣٠١	١
أنا والله لا أشرب	٣٠١	٧
ومنه :		
إذا غاب لم أشهد وكان محله	٣٠٢	١٣
محل ووادي حيثما كان داره		

وأوصت أن تدفن	٣٠٣	١
ويتغزل في رقية بنت البهلول	٣٠٣	١٠

الرابعــــة
مجموعة الملحوظات العــامــة

١ ــ ورد في الصفحة ١٨ سطر ٢٢ : وقد نظرت في رسالة الدكتور «كروب» فألفيت أن عنوانها «قسم قحطان في كتاب نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب». والصواب «تاريخ العرب الخلص من قبائل قحطان من كتاب نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب لابن سعيد المغربي».

٢ ــ ذكر المحقق عنوان رسالة الدكتور «كروب» باللغة الألمانية في الصفحة ١٨ سطري ٢٤، ٢٥.

vom stamme Qahtan **Aus Dem Kitab Nashwat At-tarab** Fi Tarih **Gahiliyyat Al-Arab Des Ibn** Sa'id Al-Magribi.

والصواب :

Die Geschichte der **«reinen Araber» vom Stamme Qabṭàn Aus dem Kitāb naswàt aṭ-ṭarab fi ta'riḫ ğāhiliyyat al-'Arab des Ibn Sa'id al-Maġribī.**

٣ ــ ورد في الصفحة ٦٣ سطر ١٦ : ثم إن «قصير» قال. والصواب: قصيراً.

٤ ــ في الصفحة ٧٥ سطر ١١ جاء : وقيس «الشَّعْري» العبور والصواب: الشعرى.

٥ ــ هامش ٣٨ صفحة ٧٨ ورد: ومسلم ك «١٣٩» والصواب: ك ٣٩.

٦ ــ في الصفحة ٩١ سطر ٢ «ودلّة» على معدن الذهب ... و«بشرقية» معدن لجين والصواب: ودلّه على معدن الذهب .. وبشرقيّه معدن لجين.

٧ ــ ورد في الهامش ٤ من الصفحة ٩٥: سَنْجه (بالسين والصاد كما وردت في شعر المتنبي) بليدة الخ ... لم يذكر بيت المتنبي ولا المصدر.

٨ ــ في الصفحة ٩٥ سطر ١٣ جاء : «وولي» على مصر ابنه بابليون. والصواب: ولي على مصر .. الخ ..

٩ ــ جاء في الصفحة ٩٩ سطر ٥: وولي بعده ابنه «مصاعد» بن مالك. والصواب: قضاعة بن مالك، ولم يرد في كتب الأنساب ذكر لمصاعد، كما أن السياق يدل على أنه «قضاعة» على نحو ما ورد في الصفحة نفسها من المطبوع.

١٠ ــ ورد في المخطوط «وافتفرقت» وهو خطأ، وفي المطبوع صفحة ١٠٣ سطر ١٣ «فتقرقت» والصواب: افترقت.

١١ ــ صفحة ١٢٢ سطر ٣: فذهب «شقة» والصواب: شقّه.

١٢ ــ اسقط الهامش ١٧٨ من الصفحة ١٣٢.

١٣ ــ كما اسقط الهامش ١٩٧ من الصفحة ١٣٤.

١٤ ــ ورد في الهامش ٢٤١ من الصفحة ١٤٣: علث بن «عدثان» بن عبدالله بن الأزد. والصواب: علث بن عدنان الخ ... كما لم يذكر المحقق المصدر الذي اعتمد عليه.

١٥ ــ في الهامش ٥ من الصفحة ١٤٥ عرف مدينة «أبين»، وفي الهامش ٦ من الصفحة نفسها عرّف مدينة «جُرش» ولم يذكر ما اعتمد عليه من الاثبات.

١٦ ــ عرّف مدينة «أمج» ومدينة «عُسْفان» في الهامش ١٦، ١٧ من الصفحة ١٤٨ ولم يذكر المصدر.

١٧ ــ في الهامش ٢ من الصفحة ١٥٩ ترجم لـ «فُقيم» ولم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه.

١٨ ــ جاء في الصفحة ١٨٢ سطر ٢ في المتن بين قوسين معقوفين: [بن عِمْران بن إلحاف]، وفي الهامش تحت رقم ٦٩: الزيادة من الطبري، وكان على المحقق أن يضع

الزيادة في الهامش، إذ ليس المتن موضعها.

١٩ ــ في الهامش ٨٣ صفحة ٢٢٠ ترجم المحقق لأبي حمزة الخارجي في ثلاثة أسطر ولم يذكر المصدر الذي استقى منه مادته.

٢٠ ــ ورد في الصفحة ٢٢٨ سطر٦: وأسمر خطيًّا كأنَّ «كُعُوبَةً» والصواب : «كُعُوبُهُ».

٢١ ــ صفحة ٢٢٩ سطر ٩ ورد : فما بيديك نَفْعٌ أرتجية. والصواب: أرتجيه.

٢٢ ــ اعتمد على عيون الأخبار في الهامش ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، صفحة ٢٣١ ولم يذكر الجزء ولا الصفحة.

٢٣ ــ عرف الشّعرى العبور في الهامش ١٥٤ صفحة ٢٣٥ ولم يذكر المصدر الذي استقى منه مادته، ثم كان الأولى أن يعرفها في الصفحة ٧٥ (راجع الملحوظة رقم ٤).

٢٤ ــ ترجم المحقق لـ «نفر الطائي» في الهامش ١٥١ الصفحة ٢٣٥. ولم يذكر المصدر.

٢٥ ــ العبارة : [ومعه أخلاط من شُذَّاذ العرب] وردت في المتن صفحة ٢٥٣ سطر ١٤ وأوْلى بها الهامش، لأنها إضافة ساقها المحقق من الأغاني.

٢٦ ــ في الصفحة ٢٥٤ سطر ١٣ في المتن وردت بين قوسين معقوفين العبارة: [فنزلا منزلا]، أضافها المحقق من الأغاني وموضعها الهامش.

٢٧ ــ ورد في المخطوط وفي المطبوع ص ٢٦٩ سطر ١٣: «ثمان عشرة» والصواب ثماني عشرة. وكان على المحقق أن يصحح الخطأ ويشير إليه في الهامش.

٢٨ ــ في الصفحة ٢٨٤ سطر ١٥ فلقي «عَدى بن زيد» والصواب: زيد بن عَدى.

٢٩ ــ في متن الصفحة ٢٩٨ سطر ٢٢ أورد المحقق ما بين القوسين المعقوفين: [أخبرني عبد مناف عن أبيه عبد المطلب بن هاشم أنه قال] منقولا من التيجان وموضعه الهامش.

الهوامش

(1) Die Geschichte der «reinen Araber» von Stamme Qaḥṭān, 2., verbesserte Auflage, Frankfurt am Main, 1982.

(٢) وردت هذه الزيادة في ص١٨٧ سطر٩، ص١٩٣ سطر٧، ص٢٢١ سطر١١، ص ٢٤٣ سطر ٣، ص ٢٦٩ سطر ٨.

ملحوظة : عدا العناوين التي أضافها إلى المتن ولم ترد في الأصل.

(٣) وردت هذه العبارات في الهامش الأيسر من المخطوط (١٢و).

(٤) الغريب في الأمر أن المحقق خرج الآية ولم ينتبه إلى الخطأ.

(٥) في المطبوع : فشكوا، وفي المخطوط: فشكا. (نبهنا إلى هذا في ص ٤١٢).

(٦) في المطبوع المسعودي، والصواب ما أثبتناه نقلا عن المخطوط.

مُناقشات وتعقيبات

دحض ما زعمه قلقيلة من أن «اختيار الممتع» هو « هدى كامل المبرد »

محمود شاكر القطان

كلية التربية ــ جامعة المنوفية

طالعتنا مجلة «عالم الكتب» .. بمقال للدكتور عبده قلقيلة، يزعم فيه أن كتاب «اختيار الممتع» المنتخب من كتاب «الممتع» لعبد الكريم النهشلي إنما هو «هدى كامل المبرد».

ولقد فجعت فجعا شديدا، وأسفت أسفا كبيرا على هذا الأسلوب الذي عولج به الموضوع، ولو أن كاتب المقال كان قد لجأ إلى النقد البناء، ملتمسا فيه وجه الحق، لحمدنا له منهجه، وعرفنا له قدره، ولكنه آثر طريق الهجاء، وسلك مسلك الشتائم والتطاول على من يعرف ومن لا يعرف، فجانبه بذلك طريق الرشاد.

وأما ردي على الأغاليط والمفتريات التي أفعم بها المقال فيتلخص فيما يلي :

١ ــ قال الدكتور قلقيلة إنني قلدت الأستاذ الدكتور منجي الكعبي، والأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام، زاعما أنني جلبت لنفسي نسختين من كتابيهما، وضعت إحداهما في كمي الأيمن، والأخرى في كمي الأيسر!!.

ولعل فيما قاله الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة في هذه النقطة ما يقنع كل ذي قلة من عقل، أو بقية من إدراك.

ولكني أذكر واقعة جرت ليلة مناقشة رسالتي، وهي تحقيق كتاب «اختيار الممتع» في قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الاسكندرية، فقد استدعاني الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام في مكتبه بالكلية، وتكلم معي في أمر هذا الكتاب، وذكر لي أنه انتهى من تحقيقه، ودفع به إلى المطبعة .

فإذا كان كتاب الدكتور سلام لم يظهر حتى ليلة المناقشة، فكيف تسنى لي وضعه في كمي الأيسر؟!.

أما كتاب الدكتور الكعبي فقد بقيت نسخته الوحيدة لدى الأستاذ الدكتور هدارة، ولم يطلعني عليها إلا بعد المناقشة، وبذلك لم تكن هذه النسخة هي الأخرى في كمي الأيمن!.

فهذه التهمة التي أطلقها الدكتور قلقيلة دون دليل من عقل أو نقل تهمة باطلة.

٢ ــ تعرض الدكتور قلقيلة للأستاذ الدكتور هدارة باعتباره المشرف على الرسالة وتساءل: «فأين كان المشرف»؟.

وأنا أقول قولة حق: إن الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة كان موجودا في هذه الرسالة بعقله

وعلمه، ومكتبته الزاخرة، فقد راجعها أكثر من مرة كلمة كلمة، وحرفا حرفا، ولم يسمح بطبعها إلا بعد أن اطمأن عليها كل الاطمئنان ، وليس ذلك بغريب على أستاذنا القدير، فهذا هو أسلوبه مع كل الرسائل التي يناط به الاشراف عليها وما أكثرها! وما أعظم خبرته في هذا المجال!.

ومثل الدكتور هدارة لا يوجه إليه مثل هذا التساؤل.

٣ ــ نال الدكتور قلقيلة من لجنة المناقشة التي أقرت الرسالة، ومنحت محقق الكتاب درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى.

ولا شك أن هذه اللجنة الموقرة كانت على مستوى عال من العلم والكفاءة، فحسبك بلجنة رئيسها العالم الجليل الاستاذ الدكتور طه الحاجري، وعضو يمينها والمشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة، وعضو شمالها الأستاذ الدكتور عبد الحكيم حسان.

٤ ــ وأما بيت القصيد في هذا المقال فيتمثل في أن الدكتور قلقيلة يصر على أن كتاب «اختيار الممتع» المنتخب من كتاب «الممتع» لعبد الكريم النهشلي ، ليس صحيح النسبة إلى صاحبه ، وإنما هو كتاب «هدى كامل المبرد».

وللرد على هذا الزعم الخاطىء وتفنيده أقول:

أ ــ جاء عنوان الكتاب في اللوحة الأولى من مخطوطته على هذا النحو: «هدى كامل المبرد» إلا أنه قد ضرب على هذا العنوان بكلمة «خطأ» وكتب فوقه: «إنما هو قطعة من اختيار الممتع، كتاب عبد الكريم.

كما يوجد بجوار ذلك: «صحته: كتاب في المحاضرات، انتخبه مؤلفه من كتاب الممتع لعبد الكريم.

وجاء في اللوحة الأخيرة من المخطوطة: «إلى هنا انتهى كامل المبرد...».

ويلاحظ أن هناك اختلافا بين هذه العبارة الأخيرة:.. «انتهى كامل المبرد»... وبين عبارة العنوان: «هدى كامل المبرد»، مما دفع بعض المصححين إلى أن يصرخ قائلا بجوار هذا الكلام المضطرب: «قلت ليس هذا بكامل المبرد، وإنما هو قطعة من اختيار الممتع كتاب عبد الكريم».

ويبرر الدكتور قلقيلة هذا الاضطراب بأن الناسخ قد نسي كلمة «هدى» وهو يكتب نهاية الكتاب[1].

ولعل هذا التناقض في عنوان الكتاب ونهايته، وهذه التصحيحات في كلتا اللوحتين الأولى والأخيرة، وانتفاء التشابه بين هذا الكتاب، وكتاب الكامل للمبرد، وكذا ما يأتي من توثيقات ــ تؤكد أنه ليس هدى كامل المبرد، وإنما هو اختيار من ممتع عبد الكريم.

ب ــ جاء في اللوحة الرابعة عشرة من المخطوطة ما نصه: «من ههنا ابتداء منتخب الممتع من أوله».

وقد كتب هذا الكلام في صلب المخطوطة، وبنفس الخط الذي كتبت به سائر صفحاتها، وذلك ما يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن هذا الكتاب هو «اختيار الممتع» فالانتخاب من الممتع، والاختيار منه بمعنى واحد.

ولو كان هذا الكلام قد جاء هامشيا لا في صلب الكتاب وصميمه، لكان هناك مجال للمناقشة، وفرصة للمحاجة، أضف إلى ذلك أنه قاطع بأنه منتخب الممتع وبدايته.

وهذا ما دفعنا إلى تأخير الصفحات السابقة على

هذا الكلام وجعلها ملحقا للكتاب.

جـ ـ جاء في اللوحة الثامنة عشرة من المخطوطة، وفي صلب الكتاب كذلك ، وبنفس الخط: «ومن كتاب الممتع لعبد الكريم في فضل الشعر، وما تعلق به، وانصاف إليه من خبر أو شعر قال...».

وهذا النص يدل بوضوح على استمرار الناسخ للكتاب في الاختيار من الممتع، والأخذ منه، ولكنه يضيفُ شيئا جديدا، وهو نسبة الممتع لعبد الكريم.

وهكذا يكون إطلاقنا اسم «اختيار الممتع لعبد الكريم» على هذا الكتاب ليس خطأً كما زعم الدكتور قلقيلة في مقاله، لأن الاختيار مأخوذ من الممتع الذي هو كتاب عبد الكريم، وبذا يصح عقلا نسبة الاختيار لعبد الكريم.

ولكن الدهش يتملكني حينما أقرأ قول قلقيلة في مقاله «فأبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي المتوفى سنة ٤٠٥هـ لم ينهض باختيار الممتع بل بتأليف الممتع» ومن قال غير هذا؟!.

د ـ ورد في اللوحة الرابعة والسبعين من المخطوطة: «قال عبد الكريم في كتابه: «وأكثر ألقاب الشعراء بالأبيات تقع لهم فيها شنعة، فيسمى الشاعر بها».

وقد جاء هذا النص كسابقه في صلب كتاب «اختيار الممتع» وهو توثيق آخر يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الاختيار مأخوذ من الممتع كتاب عبد الكريم.

ولكن الدكتور قلقيلة له تعليق يثير الدهشة على التوثيقين السابقين وهما:

«ومن كتاب الممتع لعبد الكريم»، «قال عبد الكريم في كتابه» حيث يقول في أحد كتبه[٢]: «والتوثيقان ملفتان للنظر، لازدواجية الغيبة فيهما، ولأن عبد الكريم لا يمكن أن يقول عن نفسه وعن كتابه الممتع في كتاب الممتع: «ومن كتاب الممتع لعبد الكريم» قال أو «وقال عبد الكريم في كتابه» هكذا بأسلوب الغيبة في التحدث عن نفسه، وعن كتابه. فالكاتب إنما هو عبد الكريم، والمكتوب إنما هو فقرة من كتاب الممتع، وكتاب الممتع حاضر لديه!! بل تحت يديه!! وها هوذا يكتب فيه بقلمه!! وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة لعبد الكريم إلى هاتين العبارتين اللتين لا تُقبلان إلا إذا كان كاتبهما شخصا آخر غير عبد الكريم، وفي كتاب آخر غير الممتع»!!.

سبحان الله !!

من قال : إن الكاتب لاختيار الممتع هو عبد الكريم؟.

ومن قال : إن اختيار الممتع هو الممتع؟.

لقد قلنا كثيرا : إن الكاتب لاختيار الممتع هو الناسخ الذي انتخبه واختاره من الممتع، وإن الذي كتبه هو اختيار الممتع وليس الممتع.

فعبد الكريم إذن ليس هو الكاتب، واختيار الممتع ليس هو الكتاب الحاضر لديه، والذي تحت يديه، وليس هو الذي يكتب فيه بقلمه.

وهكذا ندرك أن الأمر في حاجة إلى هاتين العبارتين ، لأن كاتبهما شخص آخر غير عبد الكريم هو الناسخ، وهو يكتب في كتاب آخر غير الممتع هو الاختيار من الممتع، أو «اختيار الممتع».

هـ ـ جاء في اللوحة السابعة والعشرين والمائة ما نصه: «تجز اختيار الأول والثاني في كتاب عبد الكريم، وهذا أول اختيار الجزء الثاني».

وقد كتبت هذه العبارة في صلب الكتاب، وبنفس الخط الذي كتبت به المخطوطة كلها، وهي بذلك تعد من أهم التوثيقات التي تؤكد نسبة «اختيار الممتع»

إلى كتاب عبد الكريم، وهو الممتع.

وكعادة الدكتور قلقيلة في الاستنتاجات التي تحير العقول، فإن له فهما خاصا لهذه العبارة، ورأيا غريبا فيها، فهو يرى أنها «من مظاهر التناقض والاضطراب في توثيق الكتاب»[٣]!!.

ولعل الذي دفعه إلى هذا الحكم غير الصائب، والرأي غير السديد هو ما جاء في العبارة من خطأ في الكتابة وقع فيه الناسخ، حيث ذكر «الأول والثاني» في صدر العبارة، ثم ختمها بكلمة «الثاني».

وتصحيح هذه العبارة يكون بأحد أمرين:

الأول: تغيير كلمة «الثاني» الواردة في عجز العبارة إلى «الثالث».

الثاني: حذف «والثاني» الواردة في صدرها.

ولكننا إذا وقفنا عند الأمر الأول، وسلمنا بوجود ثلاثة أجزاء للكتاب، فإننا نصطدم بقلقيلة، وتمحلاته حيث يقول: «ولنصدق أن اللوحة ١٢٧ هي أول الجزء الثالث، وأن أول الكتاب إنما هو بداية الجزء الأول منه، فأين نهاية الجزء الأول وما وليها واتصل بها من بداية الجزء الثاني؟»[٤].

وقد نسي الدكتور أن الزمن يمكن أن يفعل بمثل هذه المخطوطات الأفاعيل.

وأيا كان الخطأ في هذه العبارة، أو في تسلسل أجزاء الكتاب، فإننا لا يمكن أن نعتبر ذلك مظهرا من مظاهر التناقض والاضطراب في توثيق الكتاب كما زعم قلقيلة.

ويقول الدكتور قلقيلة في نهاية كلامه عن هذه النقطة: [والخلاصة أن صاحب عبارة «تجز اختيار الأول والثاني في كتاب عبد الكريم، وهذا أول اختيار الجزء الثاني» في اللوحة ١٢٧ هو صاحب عبارة «من هنا ابتدأ منتخب الممتع من أوله» في اللوحة رقم ١٤، لكن ليس هو صاحب التصويب الخاطىء في أول الكتاب، وفي آخره، فذلك شخص آخر[٥]].

وأنا أقول: حقا إنه شخص آخر ذلك الذي كتب هاتين العبارتين، لأنه هو ناسخ المخطوطة كلها، ومنتخب «اختيار الممتع» من كتاب الممتع.

أما صاحب التصويب السليم، والذي ضرب على العنوان غير الصحيح فهو رجل يعي ما يقرأ، فقد وقف على كل التوثيقات السابقة، وأدرك قيمتها في تصحيح نسبة الكتاب إلى صاحبه، فعلم أن هذا الكتاب هو اختيار من الممتع كتاب عبد الكريم، وليس «هدى كامل المبرد» فأتى على العنوان غير الصحيح، حتى لا ينسب شيئا إلى غير صاحبه، ولا كتابا إلى غير مؤلفه.

و ـــ جاء في اللوحة الخامسة والستين من مخطوطة «اختيار الممتع» ما يلي: «قال عبد الكريم: ولي أبيات من قصيدة ذكرتُ فيها الهيبة وهي...».

وللدكتور قلقيلة في هذه العبارة رأي غريب، لا يملك المرء إزاءه إلا أن يغرق في الضحك، فهو يقول: ولو كان عبد الكريم هو كاتب «قال عبد الكريم» لما كانت به حاجة إلى كتابتها أصلا، ولعطف على ما سبق بقوله: «ولي أبيات من قصيدة ذكرتُ فيها الهيبة» أو لقال «قلتُ» بضمير المتكلم، بدلا من «قال عبد الكريم» بضمير الغائب. أما أن يبدأ بالكلام عن نفسه بضمير الغائب، وهو الكاتب، ثم لا يلبث أن يتحول من الغائب إلى المتكلم، فهذا مستبعد، إذ ليس فيه تناسق ولا تناسب»[٦].

وواضح من كلام قلقيلة هذا أن به خطأ فاحشا لم يتنبه إليه، وهذا الخطأ هو أنه يظن أن كاتب «اختيار الممتع» هو عبد الكريم، ولو كان الأمر كما توهم لكان كلامه صحيحا، ولكن كاتب «اختيار الممتع» ـــ

وهو الكتاب الذي بين أيدينا ــ هو ذلك الناسخ الذي انتخبه من الممتع كتاب عبد الكريم، ولم يقُل أحد البتة إن ما يدور النقاش حوله هو الممتع . فكيف لم يتنبه الدكتور قلقيلة إلى هذا الأمر رغم وضوحه؟!.

وبذلك ندرك أن العبارة السابقة ليس بها تناقض، أو عدم تناسق، وذلك لأن الجملة الأولى: «قال عبد الكريم» من صنع الناسخ، وأن بقية العبارة: «ولي أبيات من قصيدة ذكرتُ فيها الهيبة» قد نقلها الناسخ على لسان عبد الكريم بضمير المتكلم من كتابه الممتع، فهو مؤلفه.

وهكذا نقول ــ من خلال التوثيقات السابقة ــ بملء الفم وبكل الثقة والاطمئنان: إن ما قمنا بتحقيقه هو «اختيار الممتع» وليس «الممتع» كتاب عبد الكريم النهشلي كما فهم قلقيلة، وهو كذلك ليس «هدى كامل المبرد» كما زعم.

ونكرر مرة أخرى : إنه اختيار أو قطعة منتخبة من الممتع كتاب عبد الكريم.

وسوف يبقى «اختيار الممتع» ما بقي التراث العربي، وسيذهب الزعم بأنه «هدى كامل المبرد» أدراج الرياح، لأنه لا يعقل أن يقف د. قلقيلة وحده في جانب، ويكون الصواب معه، في حين يقف في الجانب الآخر كل من اتصل بكتاب اختيار الممتع من ناسخ، ومصححين للعنوان، ومحققين، ومشرفين على رسائل جامعية، ومناقشين لها، ويكونون جميعا على باطل.

ز ــ وأما ما جاء في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني من نُقول عن كتاب الممتع لعبد الكريم النهشلي، فلم أشأ أن اتعرض لها، وذلك لأن ما تقدم من توثيقات تكفي للتأكيد على أن «اختيار الممتع» إنما هو جزء من «الممتع» كتاب عبد الكريم، ولا حاجة لنا إلى حجج أخرى.

وانتقل بعد ذلك إلى الرد على المؤاخذات التي أخذها عليّ الدكتور قلقيلة في مقاله. وهذا الرد يتلخص فيما يلي:

أ ــ آخذني الدكتور على الرأي النقدي الذي استخلصته من «اختيار الممتع» وهو «عجز خطباء العرب وشعرائها عن الاتيان بمثل القرآن الكريم».

وقال بحدة : «إذ ماذا في عجز خطباء العرب وشعرائها عن الاتيان بمثل القرآن الكريم، بل بمثل سورة من سوره، أو آية واحدة من آياته؟.

والأمر إزاء هذا القول ليس بهذه البساطة ، والوقوف على مضمونه ليس بهذه السهولة، إذ المقصود منه هو أننا لكي نقف على حقيقة إعجاز القرآن ــ كما فعل الباقلاني في كتابه ــ لابد من السير في طريق النقد، فنتعرف على عجيب نظم القرآن، وبديع تأليفه وأسرار بلاغته، وندرك أنه لا تباين بين أحكامه، ولا تفاوت بين معانيه، ولا نزول عن مرتبة الاعجاز في تعبيره.

وفي المقابل لهذا الكمال المطلق لكل مناحي التعبير في القرآن، نجد أن خطباء العرب وشعراءها تختلف أساليبهم، وتتباين تعبيراتهم في الأغراض التي يقصدون إليها.

ولا يظهر ذلك إلا بأعمال مبضع النقد في كلامهم.

فإذا بان نظم القرآن وتأليفه الذي لا يتفاوت، ولا يتباين، وظهرت الاختلافات بين كلام البلغاء، حكمنا بإعجاز القرآن.

وهذا عين ما فعله الباقلاني، حيث لجأ إلى نقد قصيدتين من غرر القصائد العربية، إحداهما لامرىء

القيس، والأخرى للبحتري، ليحكم بعد ذلك بإعجاز القرآن.

أليس ذلك من أمور النقد يا دكتور قلقيلة؟.

ب ــ أخذ عليّ دكتور قلقيلة قولي عن العرب: إنهم «اغتفروا الضرورة في الشعر ولم يغتفروها لغيره، رغبة في تخليد أخبارهم».

فقال: فلم تكن الرغبة في تخليد الأخبار، ولن تكون سببا في اغتفار الضرورة الشعرية».

ومعروف أن الشعر كان ديوان العرب، وسجل مفاخرهم، والحارس على أمجادهم، والذائد عن شرفهم، فاهتموا به، وحاطوه برعايتهم، وذلك لأنهم وجدوا نفوسهم أعلق به، وأسرع إلى حفظه، على عكس النثر الذي كان يتفلت من بين أيديهم، لما وضع للشعر من الأوزان والقوافي، وعري منه النثر. ومن هنا كان الشاعر أكثر حاجة إلى رخص تيسر له بعض القيود التي فرضت على فنه، الذي تراه الأمة العربية ضرورة من ضرورات حياتها، وسببا من أسباب بقائها «فكم جهد عسير كان الشعرُ فرج يُسره، ومعروف كان سبب إسدائه، وحياة كان سبب استرجاعها، ورَحِم كان سبب وصلها، ونار حرب أطفأها، وغضب برّده، وحقد سَلّه، وغنى اجتلبه، وكم اسم نوه به، ورجل عَرّف به، وكم شاعر سعى بذمته فرد خيلا بعدما أبيحت، وأهلا بعدما سُبيت، وفك من أسَارَى أكْتب أيديها القدُّ، وعنّتها سلاسل القيود»(٧).

ألا يستحق فن له كل هذه الآثار المحمودة على الأمة العربية أن تكون له بعض الرخص، وتوضع له بعض الضرورات التي تفسح لمبدعيه سبل القول، وتيسر لهم مجال الكلام، فينطلقون في تسجيل المآثر، وتخليد الأمجاد.

فهذا هو الأخطل يقول مفتخرا بعميه:

أبني كليب إن عمَّيَ اللذا قتلا الملوك وفكها الأغلالا(٨)

فقد حذف النون من تثنية «الذي» حرصا منه على بيان مآثر عميه وأفضالهما، مغتفرا لنفسه مثل هذه الضرورة الشعرية. ولو خير الأخطل بين هذا البيت وبين النون، لاختار البيت الذي يخلد أخبار أهله، ولترك النون تذهب لشأنها.

وهكذا اغتفر العرب الضرورة الشعرية رغبة في تخليد أخبارهم.

جـ ــ قلت في أحد استنتاجاتي لبعض الآراء النقدية من كتاب «اختيار الممتع» : «لا ينبغي لعاقل أن يتعرض لشاعر».

ففوجئت بقلقيلة يرفع صوته متسائلا: هل قول القائل: «لا ينبغي لعاقل أن يتعرض لشاعر» رأي نقدي، أو قضية نقدية؟.

وأنا أسأل الدكتور قلقيلة فأقول: إذا لم يكن هذا الكلام رأيا نقديا، أو قضية نقدية، فلماذا عقد ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة الذي ألفه في محاسن الشعر وآدابه ونقده فصلا مستقلا بعنوان: «باب تعرض الشعراء؟»(٩).

ولماذا جاء في «اختيار الممتع»: «باب فيه النهّي عن تعرض الشعراء»(١٠) وبان منه علة ذلك بأنها «ربما كلمة جرت على لسانه (أي الشاعر) فصارت مثلا آخر الأبد».

وإذا جرت كلمات الهجاء على ألسنة الشعراء، فصارت مثلا آخر الأبد، أصبحت مجالا للتهكم والسخرية يُفزع من قيلت فيهم، ويجعلهم يتمنون أن لو فدوا أنفسهم منها بما يملكون. ولا يقع لهم ذلك إلا

إذا كانوا يدركون ما في هذه الكلمات من آثار مؤلمة على نفوسهم.

ولعل هذا ما جعل الخلفاء والأمراء، وأشراف القوم يتجنبون التعرض للشعراء، حتى ولو كان ذلك ممازحة، خوف أن ينقلب مزاح الشعراء في الرد إلى جد يعود بالوبال على أولئك الناس. وكان خوفهم هذا منبعثا من وقوفهم على حقيقة الشعر، وإدراكهم لأثره على النفوس.

وخير مثال على ذلك عمر بن الخطاب الذي دفعه علمه بالشعر، ووقوفه على أسراره إلى ألا يعرض نفسه لشاعر. فلما هجا النجاشي الشاعر بني تميم بن أبي بن مقبل العجلاني، واستعدوه عليه، لم يشأ أن يزج بنفسه بين الشاعرين، وعندئذ طلب منه بنو عجلان أن يعرض أمرهم على حسان بن ثابت، فلما قال عمر لحسان: هل هجاهم النجاشي؟ رد عليه بقوله: لا، ولكنه سلح عليهم.

وبالتأمل في هذا الخبر ندرك أن فرار عمر من الحكم بين الشاعرين: النجاشي، وتميم بن أبي العجلاني نابع من خوفه من التعرض لهجاء واحد من الشاعرين لو حكم للآخر، وهو يعلم قسوة الهجاء على النفس، وبقاءه أبد الدهر، وسيرورته بين الناس. وكذلك كان الحال مع بني العجلان حين استعدوا عمر على النجاشي فقد جاء هذا الصنيع من وخز هجائه لهم، وتألمهم منه، ولوقوفهم على أسرار الشعر، وإدراكهم لمعناه. أما حكم حسان على هجاء النجاشي، فقد جاء حكم خبير بفن الشعر، مدرك لمعانيه وصوره.

وهذا كله هو عين النقد.

د ــ وأما ما زعمه الدكتور قلقيلة من تنكيس الكتاب، وجعل الأربع عشرة ورقة الأولى آخره، وتعليقه على الهوامش، والموازنة بينها وبين هوامش الكعبي، وغير ذلك من توافه الأمور التي أثارها، فلا تعنيني في شيء، فحسبي أن الكتاب برمته قد حقق تحت إشراف العالم الكبير الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هدارة رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب. جامعة الاسكندرية، وهو من هو علما وفكرا، وفقها في أمور الأدب والنقد، وإحاطة بجوانبهما.

وفي الختام نقول للدكتور قلقيلة: إنه قد ظهر لكل ذي عينين، ولكل صاحب عقل مستنير أنه من المفجع حقا أن نقول: إن هذا الكتاب هو «هدى كامل المبرد» وليس «اختيار الممتع».

كما نقول له كذلك: إنه لخير ألف مرة للتراث والأدب أن يكون هناك كتاب صحيح العنوان، سليم النسبة لصاحبه، من أن يكون هناك كتاب مخطأ العنوان مجهول المؤلف. وهنا لا يسعني إلا أن أردد قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

ربنا لا تُزِغْ قُلوبَنا بعد إذ هديتنا.

والسلام على من اتبع الهدى.

هوامش

١ ــ النقد الأدبي في المغرب العربي ٧١.
٢ ــ وهو المقنع ١٥٦.
٣ ــ المقنع ٢٨٦.
٤ ــ المقنع ٢٨٧.
٥ ــ المقنع ٢٨٨.
٦ ــ المقنع ٢٠١.
٧ ــ اختيار الممتع حـ١ / ٦٦ طبعة دار المعارف.
٨ ــ العمدة حـ٢ / ٢٧٢ دار الجيل. الطبعة الرابعة ١٩٧٢.
٩ ــ حـ١ / ٧٦. دار الجيل. الطبعة الرابعة.
١٠ ــ حـ١ / ٣٤٧. دار المعارف.